الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

المركز الجامعي بالوادي

معهد العلوم الاجتماعية والإنسانية　　قسم: التاريخ

الإرساليات التبشيرية وأثرها في بعث الفكر القومي العربي في بلاد الشام خلال القرن 19م

مذكرة مكملة لنيل شهادة الليسانس في التاريخ

إعداد الطالبات:

✍ إبتسام بالضياف

✍ أم كلثوم العتري

✍ سعدية مراد

إشراف الأستاذ:

❋ أحمد بالعجال

لجنة المناقشة: □. أ/ عبد الحميد العابد　　رئيسا

□. أ/ أحمد بالعجال　　مشرفا ومقرّرا

□. أ/ محمد عبد الرؤوف ثامر　　عضوا مناقشا

السنة الجامعية: [redacted] م

الإهـداء

بسم الله الرحمان الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين .

أهدي ثمرة جهدي هذا :

* من يترنم القلب عندما يُدندن لساني بذكرها . . . أمّي . . .

* إلى عمد بيتنا الجميل . . . أبي

*إلى من تقاسمت معهم دفئ العائلة أحببت دوما مشاركة أمي في تحمل مسؤليتهم إخوتي

"فاطمة . .رقية . .زينب . .عبد العزيز . .أسامة . .زكرّياء . .يحي . .أحمد البشير"

وأخي الذي سيكتب له المولى عز وجل العيش بين أحضان أسرتنا مستقبلا " إسلام أو قسّام"

*إلى روح جدّي وجدّتي الطاهرة . .والدا أبي

*إلى جدّي الحنون الذي لم أشأ ردّ طلبه المتمثل في انجاز هذه المذكرة، وإلى جد تي العزيزة، والدا أمي بارك الله في عمرهما .

* إلى من أكنّ لهم الإحترام والتقدير أخوالي الأعزاء : عبد المجيد ، محمد ، وخالاتي من عائشة إلى مريم، وإلى كل أزواجهم، وأبناءهم من نعيم إلى مرام .

* إلى عمّي الوحيد عبد الغني . . . إلى كل من يحمل لقب العتري .

* إلى كل من علمني حرفا من معلمي الحنون " محمد بن تيشة" إلى أستاذي المتواضع "أحمد بالعجال" المشرف على هذه المذكرة .

* إلى كل صديقاتي بالبياضة، وأخص بالذكر "شلّة التسعة" رفيقات دربي "أنفال، حنان، ابتهال، سمية، هناء، نعيمة، مريم، مليكة"

* إلى زميلاتي في هذا العمل سعدية وابتسام.

* إلى كل من وجدتها في أحلك أوقاتي كوثر وعفاف بته.

* إلى كل أخوتي وأخواتي في الإتحاد العام الطلابي الحر "وحدة. . . حرية. . . عمل"

*إلى كل عاملي وعاملات المكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة الذين أحسنوا معاملتي.

* إلى كل طلبة التاريخ خاصة دفعة 2012 وعلى رأسهم طلبة الفوج الخامس

** إلى الإخوة والأخوات في الله. . . إلى محبّي لغة الضاد. . . إلى وطني الحبيب. . . إلى بلسم روحي فلسطين الجريحة. . . إلى غزة العزّة.

* إلى الذين نساهم قلمي ولم ينساهم قلبي

إليك قارئ هذا الإهداء

أهدي ثمرة ستة عشر سنة من العلم والتحصيل

أم كلثوم

الإهداء

الحمد لله ربي العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين نبيّنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين :

أحمد الله تعالى الذي وفقني طيلة مشواري الدراسي وأوصلني إلى أنا ما عليه .

أهدي ثمرة هذا العمل إلى من أوصاني بهما الرحمان إحسانا

﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ **سورة الإسراء: 24** .

إلى واحة الحب الفياض . . . إلى ينبوع الرحمة والحب والأمل في الحياة . . . إليك يا صدرا حنونا يضمنا فينسينا جراحنا وآلامنا إليك أمي الحنونة " جمعه " أطال الله في عمرك .

إلى الذي ظلني بالرعاية والحماية وكان لي سندا إلى من ضحى لأجل أن يراني أخطوا على درب العلم والمعرفة إلى قدوة حياتي والدي العزيز "معمر" أطال الله في عمره .

إلى النجوم الزاهرة في سماء حياتي إخوتي الأعزاء : فيصل ، خالد ، رمزي ، علي

وإلى أخي كمال رحمه الله وتغمده بواسع رحمته

وإلى زوجة أخي العزيزة والزهرة التي تعطر حياتنا ابنة أخي أروى

إلى أمي الثانية جدتي حفظها الله ورعاها ، وإلى أخوالي : مسعود ، موسى ، حمزة ، وأبنائهم

وأعمامي : خليفة ، محمد وأبنائهم

وخالاتي : العطرة ، الزهرة ، مسعودة ، وأبنائهم ، وإلى عمتي فاطمة وأبنائها .

وإلى كل من ساعدني في إنجاز هذه المذكرة بداية بالأستاذ المحترم بلعجال أحمد وأخي العزيز خالد وإلى كل من علمني حرفا منذ بداية مشواري الدراسي ، وإلى كل طلبة المركز الجامعي بالوادي خاصة طلبة قسم التاريخ الفوج الأول .

إلى صديقاتي في الحي الجامعي خديجة ، حدي ، عيشة ، حياة ، سليمة ، قمرة .

وآخرين نسيهم قلمي وحفظهم قلبي .

إلى بلد الشهداء أمنا الجزائر

إبتسام

الإهداء

أحمد ربي الذي أهداني نعما لا تحصى

* إلى من استنشقت حبه مع أول أنفاسي فجره مجرى الدم من عروقي ، إلى رحمة ربي وقرّة عيني " محمد رسول الله ﷺ " .

* إلى أعز الناس إليَّ ، وصاحبا الفضل الوافر عليَّ "أمي وأبي" أمدّ الله في عمريهما ورزقني برّهما .

* إلى أخي الأكبر "يوسف" الذي كان لي نِعم السند طوال مشواري الدراسي ، فأسأل الله العظيم أن يجعل ذلك في ميزان حسناته .

* إلى إخوتي الأعزاء : مبروك ، إبراهيم ، عثمان ، لحسن ، وأخواتي ورفيقات دربي : مريم ، لطيفة ، الزهرة (وأبناءها) .

* إلى أبناء أخواتي الصغار : محمد ، نور الهدى ، محمد عبد الوهاب ، وأمهاتهم الفاضلات ، وإلى كل أهلي وأقاربي حفظهم الله جميعا من كل مكروه .

* إلى كل زملائي وزميلاتي الطلبة والطالبات بالمركز الجامعي بالوادي ، وخاصة طلبة التاريخ ، والسنة الرابعة والفوج الأول بالخصوص .

* إلى كل معلميّ وأساتذتي .

* إلى أخواتي بالحي الجامعي واللاتي قضيت معهن أحلى أيام حياتي . . . ولن أذكرهن خشية نسيان بعضهن .

* إلى أغلى بلد ارتوى ثراه بدماء الشهداء " الجزائر الحبيبة"

* إلى أهل بلاد الشام الشرفاء . . .إلى كل هؤلاء أهدي هذا العمل .

سعدية

شكر وعرفان

قال تعالى : ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾

سورة الزمر : الآية 7

نشكر الله العلي القدير ونحمده على أن وفقنا وأعاننا على إتمام هذا العمل

فاللهم لك الحمد حتى ترضى ، ولك الحمد إذا رضيت ، ولك الحمد بعد الرضا

كما نتقدم بالشكر والامتنان

إلى أستاذنا الكريم " بلعجال أحمد " على ما قدمه لنا من نصح مساعدة .

كما نشكر كل من ساعدنا من قريب أو بعيد في انجاز هذا العمل (أساتذة ، طلبة ،

عمال المكتبات " الوادي ، قسنطينة ، الجزائر "

كما لا ننسى حنكة للخدمات المكتبية

إبتسام . . أم كلثوم . . سعدية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى

وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ

مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

سورة البقرة، الآية ١٢٠

1- التعريف بالموضوع:

منذ أن بدأ الضعف يدبُّ في أوصال الدولة العثمانية، ظهرت مطامع الدول الأوروبية فيها، وبدا تنافسها محتدما من أجل تقسيم تركة الرجل المريض، وتوسيع نفوذها على حسابها، ولمّا كان التدخّل العسكري الأوروبي غير متمكنا آنذاك لأن الدولة العثمانية مازالت قادرة على الدفاع عن نفسها، فكان لابدّ من إيجاد طرق بديلة للتغلغل داخل الدولة العثمانية، كان من بينها تلك البعثات التبشيرية (التنصيرية) الآتية من أوروبا وأمريكا والتي دخلت البلاد العربية منذ القرن17م، وكثفت نشاطها في القرن 19م، وخاصة في بلاد الشام مستغلة عدة ظروف وعوامل، ومنه جاء عنوان مذكرتنا الموسومة بـ: "الإرساليات التبشيرية وأثرها في بعث الفكر القومي في بلاد الشام خلال القرن19م".

2- إشكاليات الموضوع :

في إطار معالجتنا لهذا الموضوع حاولنا الإجابة على بعض التساؤلات والإشكاليات أمّا الإشكالية الرئيسية فهي:

إلى أي مدى ساهمت الإرساليات التبشيرية في بعث الفكر القومي في بلاد الشام خلال القرن 19م ؟

وبعض الإشكاليات الفرعية:

-كيف كانت الأوضاع العامة لبلاد الشام خلال القرن19م ؟

-ما هي أبرز البواعث المؤدية بالإرساليات التبشيرية للتوافد على بلاد الشام ؟

-فيما تمثلت أهدافها ؟ وما مدى نجاحها في تحقيق ذلك ؟

-و فيما تجلى دور هذه الإرساليات ؟

3- أهمية الموضوع:

تكمن أهمية هذا الموضوع في كون الإرساليات من أهم عوامل ظهور الفكر القومي في بلاد الشام خلال القرن 19م، والذي كان من أبرز الأسباب المؤدّية إلى تغيير مسارات الأحداث في المنطقة، وتغيّر ملامح الحياة العامة في تلك الفترة وما بعدها.

4- دوافع اختيار الموضوع:

هناك عدّة دوافع أدت بنا لاختيار هذا الموضوع أهمها:

-قلة معلوماتنا حول تفاصيل الحياة العامة لبلاد الشام خلال العهد العثماني.

-رغبتنا في التعرّف أكثر على التاريخ العثماني في جزء مهم من البلاد العربية وهو بلاد الشام في فترة معيّنة من الزمن (القرن19م).

-جزئية الموضوع وعدم الاهتمام به من طرف بعض المؤرخين، دفعتنا إلى التوسّع فيه.

5- المناهج المتبعة:

فأمّا عن المناهج المتبعة:

-المنهج التاريخي الوصفي: استعملناه خاصة في الفصل الأول لوصف الأوضاع العامة لبلاد الشام في القرن19م.

-المنهج السردي استعملناه في سرد الحوادث التاريخية وخاصة في الفصلين الثاني والثالث.

-إضافة إلى المنهج الاستنتاجي في نهاية كل مبحث.

6- وصف أهم المصادر والمراجع:

للإجابة على إشكالية البحث وتفريعاته الجزئية اعتمدنا على عدّة مصادر ومراجع نذكر منها:

- المصـادر: أهمهـا:

أ/ يقظة العرب (تاريخ حركة العرب القومية) لجورج أنطونيوس الذي خصّص الجزء الثالث من كتابه هذا لمناقشة الموضوع، حيث استفدنا منه في الأوضاع الثقافية والسياسية لبلاد الشام، وعن أعمال بعض الإرساليات، وبعض الشخصيات القومية.

ب/ كتاب الشيخ ناصيف اليازجي: "منتخبات شعرية" لفؤاد البستاني الذي أخذنا عنه بعض المعلومات بخصوص ناصيف اليازجي.

ج/ تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر لجورجي زيدان والذي يتناول التعريف بالكثير من الشخصيات الشهيرة ببلاد الشام خلال القرن19م وأفادنا بذلك كثيرا.

- المراجع: وأهمهـا:

-تاريخ الشعوب الإسلامية، لكارل بروكلمان، ومترجمه نبيه أمين البعلبكي وهو كتاب قيّم أفادنا في الكثير من مواضيع بحثنا.

-وتاريخ المشرق العربي لعمر عبد العزيز عمر، وهو أيضا استخدمناه كثيرا خاصة في الأوضاع السياسية، وبوادر الوعي القومي وأهم رواده.

-وكتاب الفكر العربي في العصر الحديث لموسى منير مشابك هو الآخر فصّل في مظاهر القومية العربية وروّادها وأهم الجمعيات الأدبية والسياسية ...

والكثير من المراجع الأخرى مثل:

-العرب النصارى لـ: حسين العودات.

- أضواء على التبشير والمبشّرين لسلمان سلامة عبد المالك.

-التنصير الأمريكي في بلاد الشام (1834-1944) لعبد الرازق عيسى، وهذا المرجع هو الآخر مهم جدا حيث يفصّل في جذور العمل التبشيري الأمريكي ببلاد الشام ويتطرّق لكل أطواره ومنجزاته ونتائجه.

7- الصعوبات:

وإن كان لابدّ من ذكر الصعوبات فنذكر منها: تزامن إنجاز العمل مع البحوث والواجبات الدراسية، وضيق الوقت وخاصة في آخر الأمر ولكننا نحمد الله الذي ذلل لنا الصعاب ومكننا من إكمال عملنا.

8- هيكل البحث (الخطة):

وقد اتبعنا في إنجاز موضوعنا هذا خطة تضمنت مقدمة وثلاث فصول وخاتمة.

أمّا عن **الفصل الأول:** فقد جاء بعنوان الأوضاع العامة لبلاد الشام خلال القرن 19م واحتوى ثلاث مباحث تناولنا فيها على التوالي: الأوضاع السياسية والإدارية ثم الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ثم الأوضاع الثقافية.

الفصل الثاني: فعنوناه بالإرساليات التبشيرية ودورها في بلاد الشام خلال القرن 19م هو الآخر احتوى ثلاث مباحث: الأول تحدّثنا فيه عن مفهوم التبشير وأنوعه وأهدافه، والثاني عن أهم الإرساليات الناشطة ببلاد الشام خلال القرن 19م، أمّا الثالث عن الدور الثقافي والاجتماعي لهذه الإرساليات.

والفصل الثالث: عنوانه الإرساليات التبشيرية والقومية العربية واحتوى ثلاث مباحث الأول بعنوان الإرساليات و بروز النُخب المثقفة وتطرّقنا فيه لبعض منهم، ثم النهضة الأدبية والفكرية، والمبحث الثالث بعنوان الإرساليات والجمعيات السياسية.

وختمناه ببعض النتائج التي أجملناها في خاتمة.

المبحث الأول: الأوضاع السياسية والإدارية

إنضوت بلاد الشام تحت حكم الأتراك العثمانيين إثر الإنتصار الساحق الذي حققه السلطان سليم الأول (1512-1520) على سلطان المماليك قانصوه الغوري في معركة مرج دابق شمالي حلب عام1516م.

وقد أبقى الأتراك العثمانيون على التقسيمات الإدارية التي كانت قائمة أيّام المماليك مع تغييرات طفيفة[1]، فلم يفرض العثمانيون قوانينهم وأنظمتهم الخاصة بهم على جميع المناطق بل اكتفوا في بعضها بفرض سيطرتهم السياسية والعسكرية عليها، وتركوا للشعوب المؤسسات القديمة، لذلك احتفظت بعض القيادات المحلية القبلية بالزعامة وتوريثها لأبنائهم من بعدهم.

وكانت بلاد الشام مقسّمة إداريا إلى إيالة حلب وإيالة الشام، وإيالة طرابلس.

- **إيالة حلب:** مركزها حلب وضمت الألوية التالية: أضنة، باليس، بيرة، جك، حلب، معرة النعمان.
- **إيالة الشام:** مركزها دمشق، وضمت الألوية التالية: دمشق، القدس، غزة، نابلس، عجلون، صفد، صيدا، بيروت، الكرك، الشوبك.
- **إيالة طرابلس:** مركزها طرابلس ضمت الألوية التالية: طرابلس، حمص، حماة، السلمية، حلبة[2]. وظل هذا التقسيم قائما حتى دخول إبراهيم باشا[3] إلى سورية وقيام الحكم المصري فيها (1832-1840)، وقد كانت سوريا تحظى بالإهتمام التقليدي لحكام مصر، ولقد صممّ محمد علي باشا على الإستيلاء على سورية بسبب الدوافع الإستراتيجية التي تتلخص في ضرورة إقامة منطقة حاجزة بين ممتلكاته في وادي النيل والمراكز القديمة للقوة العثمانية في الأناضول، ويرجع اهتمامه بهذا الإقليم إلى عام 1821م، عندما قام بدور الوساطة لدى الحكومة العثمانية بالنيابة عن عبد الله باشا حاكم

[1]- علي معطي، تاريخ لبنان السياسي والإجتماعي، دراسة في العلاقات العربية- التركية (1908-1918)، ط1، مؤسسة عز الدين للطباعة، بيروت، 1992م، ص11.

[2]- إسماعيل أحمد ياغي، العالم العربي في التاريخ الحديث، ط1، مكتبة العبيكان، الرياض، 1997، ص83-84.

[3]- وهو أحد أبناء محمد علي الذي اعتمد عليه كثيرا في توسعاته خاصة في بلاد الشام، حيث عينه قائدا عاما على الجيوش المسيّرة إلى حيفا في نوفمبر 1831 م، ففتحها واتخذها مركزا حربيا وحاصر عكا برا وبحرا في 26 نوفمبر 1831م وانتصر على الجيوش العثمانية بالقرب من مدينة حمص، ثم عاد إلى عكا، ودخلها عنوة في 28 ماي 1832م، ومنح حق الولاية على إقليم أضنة بموجب معاهدة كوتاهية 05 ماي 1833م، ينظر: محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تح: إحسان حقي، ط1، دار النفائس، لبنان، ص ص449-451.

عكا وبشير الثاني الشهابي [1] أمير لبنان، الذي كان قد هرب إلى مصر ولجأ إلى محمد علي باشا [2] ونشأت بينهما علاقات وثيقة [3]، وقد لجأ إلى محمد علي بمصر العديد من زعماء الشام وحكامه من أمثال بشير الشهابي، وعبد الله باشا حاكم عكا، وزعماء نابلس والقدس، وبذلك كانت العلاقات تنمو بسرعة بين مصر والشام، فقد حث محمد علي باشا بشير الشهابي على الإكثار من استخراج الفحم الحجري وإرساله إلى مصر، كما أن الشام كان في حاجة إلى كميات متزايدة من قمح مصر [4].

وحاول محمد علي في بادئ الأمر أن يستولي على سورية بالوسائل السلمية وتقدم بطلب لأجل ذلك إلى اسطنبول في عام1827م، ولكن السلطان رفض طلبه [5].

لكنه استغل ظروف هزيمة الدولة العثمانية أمام روسيا التي فرضت عليها معاهدة 1829م واحتلال الجزائر 1830م، والثورات في العراق فبعث محمد علي ابنه إبراهيم لضم الشام إلى مصر [6] فحاصر عكا وفي ماي 1832م هرب حاكم دمشق ودخلها إبراهيم وفي جويلية زحف نحو حمص ثم حلب واستمر تقدمه نحو هضبة الأناضول، وتمّ له فيما بعد السيطرة على كل سورية، وصار حاكما علناً على كل الولايات السورية، وممثلا لوالده بموجب معاهدة كوتاهية [7].

وصار قائدا عاما للجيش المصري، وأخذ في تنظيم سورية وتدبير شؤونها الإدارية والسياسية والحربية، فاعتنى بإقرار الأمن في ربوعها، وأمن الطرق ومنع اعتداء البدو على أملاك الأهالي وأرواحهم، وأمن حدودها الشمالية وعني بتحصين مضائق جبال طوروس، لصد هجومات العثمانيين ورممّ حصون عكا وأسوارها، وشيّد الثكنات

---

[1] - هو أحد أمراء الأسرة الشهابية التي حكمت مناطق من بلاد الشام (لبنان) في الفترة (1697-1842)، وقد تولى الإمارة في(1795-1840)، ينظر: عمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي (1516-1922)، دار المعرفة الجامعية، بيروت، 2003، ص353.

[2] - واجه البشير الثاني غضب الباب العالي عندما تدخل لدعم والي صيدا ضد والي دمشق وألحق به الهزيمة وأقرّ الباب العالي محاربته، فهرب الأمير بشير من لبنان إلى مصر واستقبله محمد علي بحفاوة، ولم يعد إلى لبنان إلا بوساطة من محمد علي عام1821م، ينظر: مفيد الزبيدي، موسوعة التاريخ الإسلامي، العصر العثماني (1516-1916)، دار أسامة، الأردن، 2006، ص142.

[3] - عمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي، المرجع السابق، ص316.

[4] - عبد العزيز فواز، تاريخ الشعوب الإسلامية، دار الفكر، ص235.

[5] - عمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي، المرجع السابق، ص317.

[6] - عبد العزيز فواز، المرجع السابق، ص235.

[7] - مدينة تركية، عقدت فيها سنة 1833م معاهدة بين العثمانيين ومحمد علي تحتوي على عدة بنود منها انسحاب الجيوش المصرية إلى ما وراء جبال طوروس، واحتفاظ محمد علي بولاية مصر وبلاد الشام، وجزيرة كريت مقابل دفع جزية سنوية للسلطان العثماني، ينظر: الغالي غربي، دراسات في تاريخ الدولة العثمانية والمشرق العربي (1516- 1922)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص187.

والمستشفيات، واستقرّت الحاميات المصرية في أهم المدن السورية، وقد ألغى إبراهيم باشا التقسيمات الإدارية التي سادت المدن الساحلية مثل صور وصيدا وبيروت وطرابلس وربطهم به مباشرة ثم عدَل عن ذلك بعد سنة واحدة وفوّض الأمير بشير الشهابي في أكتوبر 1832 م، بإدارة هذه المدن فولى هذا الأخير متسلّمين عليها من أقاربه وفي نفس العام عيّن محمد علي شريف باشا حاكما عاما (حكمدار) على جميع إيالات الشام باستثناء جبل لبنان حيث بقيت إداراته تحت إشراف الأمير بشير الشهابي[1].

لكن هناك الكثير من الثورات التي قامت ضد تغيير التنظيمات القديمة، فقام بتشكيل إيالة صيدا من جديد وعيّن سليمان باشا الفرنساوي واليا عليها، وفصلت حلب عن إيالة الشام، وعين إسماعيل بك واليا عليها في عام1834م، وصارت بلاد الشام في أواخر العهد المصري مقسّمة إلى عدد من الوحدات الإدارية هي: إيالات الشام، وحلب وصيدا وطرابلس ويافا وأضنة، وعلى كل إيالة موظف وأعوانه[2].

وبقي هذا التنظيم إلى أن تمّ القضاء على الحكم المصري في بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية، وبعض مناطق البلقان وانهيار مشروع الدولة العربية الموحدة بعد تدخل الدول الأوروبية إلى جانب الدولة العثمانية سنة 1840م[3]، وأثناء هذا الصراع أعلن السلطان في 1840/09/03م خلع الأمير بشير الشهابي، وأصدر فرمانا بتوجيه حكم جبل لبنان إلى بشير قاسم (بشير الثالث الشهابي)[4].

لكن انسحاب القوات المصرية من بلاد الشام ترك فراغا سياسيا فحاولت بعض القوى مثل الموارنة والدروز والعصبيات السُّنية والشيعية أن تثبت تفوقها في لبنان[5].

وأصبحت بلاد الشام مقسّمة إلى عدة ولايات: ولاية الشام (دمشق)، ولاية طرابلس ولاية حلب، سنجقية القدس، إمارة جبل لبنان [6]، فللموارنة الذين أصبحوا أكثر نفوذا بعد

---

[1]- عمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي، ص352-353.
[2]- نفسه، ص353.
[3]- مفيد الزيدي، المرجع السابق، ص200.
[4]- عمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي، المرجع السابق، ص353.
[5]- محمد الخير عبد القادر، نكبة الأمة العربية بسقوط الخلافة العثمانية (دراسة للقضية العربية في خمسين عاما) (1875/1920م)، مكتبة وهبة، مصر، ص39.
[6]- عبد العزيز فواز، المرجع السابق، ص237.

تقرّب بشير الثالث منهم لينال تأييدهم بعدما ضمن جماعته الدروز [1]، وبالتالي يمكن اعتبار سنة 1840 بداية مرحلة جديدة في تاريخ لبنان إذ أن الوفاق القديم بين طائفتي الجبل قد انتهى تماما واستغلت الدول الأوروبية عامل الدين والطائفية لملأ الفراغ السياسي.

أبرز هذه التدخلات كانت من طرف القناصل الانجليز فقد كان القنصل البريطاني "روز" سنة 1840م سببا في عزل الوالي العثماني "علو باشا" من الولاية فكان بذلك محل قلق للولاة جميعا، إذ كان تدخل في شؤون الولاة مستمرا، دون أن تستطيع الدولة فعل شيء أمام ذلك[2]، وقد كان بتحريض من بريطانيا، حيث كتبت إلى قناصلها في فلسطين وسوريا ولبنان سنة 1840 م تدعوهم للتقرّب من اليهود وتكتلهم حول فكرة إنشاء الوطن القومي لليهود بفلسطين وإقناع مشايخ القبائل العربية من البحر الميّت والأردن بأن قيام مملكة إسرائيلية في جوارهم فيه فوائد مادية كبيرة لهم.

وتدخلت أيضا إيطاليا لفض النزاعات بين مختلف الطوائف المسيحية وتدخلت روسيا لحماية الأرثوذكس سنة 1840م[3]، وعمل القنصل الروسي "بازيلي" على إثارة الخلاف بين الأرثوذكس والموارنة وكان القنصل البريطاني يهدف من خلال سياسته في وضع الباشوات العثمانيين في سورية ولبنان بصورة غير مباشرة تحت الوصاية البريطانية والقضاء على النفوذ الفرنسي وتكوين طائفة تكون قاعدة ودعامة للسياسة البريطانية في لبنان [4]، ودخلت في التنافس النمسا، وخافت فرنسا من أن تأخذ الدول الأوروبية مكانتها في لبنان فبعثت قنصلها "بوريه" من أجل تدعيم مكانتها هناك.

ونتيجة لهذه الظروف أصبح اللبنانيّون أشبه بقبائل متحاسدة، وتدخّل القناصل الأجانب في كل صغيرة وكبيرة تدعيما لنفوذ بلادهم، كما أن الدروز تضايقوا من حكم بشير الثالث (بشير قاسم) وطالبوا بعزله لأنه أساء معاملتهم وعمل على الحد من سلطة الزعامات اللبنانية عامة والدروز خاصة [5]، وكان العثمانيون يعطفون على الدروز لأنهم وقفوا معهم

---

[1] - إسماعيل ياغي ومحمود شاكر، تاريخ العالم الإسلامي، الحديث والمعاصر، (987هـ-1400هـ/1492-1980م)، ج1، دار المريخ، السعودية، 1995م، ص147.

[2] - جميلة معاشي، الإرساليات التبشيرية في بلاد الشام خلال القرن 19م، بحث تمهيدي لدخول السنة الأولى ماجستير، إشراف توفيق برو، جامعة قسنطينة، 1981-1982م، ص48.

[3] - نفسه، ص48.

[4] - عمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي، المرجع السابق، ص357.

[5] - محمد التونجي، بلاد الشام إبان العهد العثماني، ط1، دار المعرفة، لبنان، 2004، ص65.

ضد إبراهيم باشا ويريدون القضاء على نفوذ الأسرة الشهابية، أمّا الموارنة والكنيسة فقد أيدوا بشير الذي اعتنق ديانتهم[1].

ولم يلبث أن اصطبغ صراع الفريقين بصبغة طائفية تمثلت في اضطرابات عام 1841م، وفي 13 أكتوبر نشبت الحرب بين الدروز والموارنة [2]، وهي المعروفة بالحركة الأولى وحاصر الدروز دير القمر، ومن ثم طرد الأمير بشير مما أغضب الباب العالي وبعث مصطفى باشا إلى قائد الجيش العثماني وأعلن في 16 جانفي 1842م أمام زعماء الجبل سقوط حكومة آل شهاب وعيّن عمر باشا أحد ضباطه وانتهى بذلك عهد العصبيات الحاكمة في نفس الوقت الذي انتهى في عهد الأخوّة الدرزية - المارونية الكاثوليكية.

بعدما تولى عمر باشا حكومة الجبل لجأ إلى استمالة أصحاب المناصب الدرزية المُهمّة والرؤساء والإقطاعيين المسيحيين ولكن الحالة اشتدت سوءا على الأهالي كما غضبت الدول الأوروبية لعزل "بشير القاسم"[3].

ولم يَجنِ عمر باشا من سعيه لاستخدام النصارى ضد الدروز إلا الإضرار بمكانته حيث بقي النصارى موالين للشهابيين، ويشككون في نياته أما الدروز فقد أغضبتهم سياسته وتكاتفوا على عداوته وقرر هو بدوره استخدام العنف ضد الدروز، وأثار هذا ردة فعل عنيفة وبينما كان ممثلو الدول الأوروبية يضغطون على الباب العالي لتسوية القضية اللبنانية كان الدروز في لبنان يتحفزون للثورة رغم محاولات الدروز والموارنة عقد ميثاق بينهم إلا أن حدة العداوة بينهما بلغت لحد يستحيل توحيد الجهود[4].

وبعد فشل هذه المساعي قرّر الدروز الإنفراد بالثورة، وهكذا شرعوا في ثورتهم واحتلوا جميع الهضاب المحيطة ببيت الدّين وقطعوا المياه عن القصر، وعندما جاء "أسعد باشا" محل مصطفى حاول التفاوض معهم، ولكن هذه المفاوضات باءت بالفشل فهاجمهم وفرّ زعماؤهم إلى حوران، وتفرق أنصارهم وقام بإقالة عمر باشا من بيت الدين، وأبرم

---

[1]- عمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي، المرجع السابق، ص358.

[2]- كمال السعيد حبيب، الأقليات السياسية في الخبرة الإسلامية، من بداية الدولة...وحتى نهاية الدولة العثمانية (622م-1908م) (1هـ-1325هـ)، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2002م، ص841.

[3]- عمر عبد العزيز عمر، دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، دار المعرفة الجامعية، مص ـر، 2005م، ص ص372-384.

[4]- عمر عبد العزيز، تاريخ المشرق العربي، المرجع السابق، ص360-361.

الباب العالي مشروعاً جديدا لحكم لبنان يوضع موضع التنفيذ اعتبارا من مطلع العام التالي[1].

وكان هذا المشروع حلا وسطا بين وجهتي النظر الفرنسية والعثمانية، ولكن اختفلت وجهات النظر حول هذا المشروع من طرف روسيا وفرنسا وبريطانيا، فروسيا أيّدت وجهة النظر العثمانية بينما فرنسا وبريطانيا عارضتاها، وللتخلص من هذا الموقف اقترح مستشار النمسا تقسيم لبنان إلى منطقتين إداريتين شمالية يقودها قائم مقام ماروني وجنوبية يقدوها قائم مقام درزي، على أن تكون الكلمة الأخيرة في القضايا العامة لوالي صيدا وأيّدت فرنسا وبريطانيا هذا المقترح، ولم يجد الباب العالي في النهاية بدّا من قبوله[2].

ثمّ عيّن أسعد باشا واليا على إيالة صيدا وكلف بتطبيق النظام بسرعة فانتخب الدروز أحمد أرسلان المحايد قائم مقاما عنهم، أمّا قائم مقامية المسيحية فقد استبعد أسعد باشا الشهابيين وعيّن الأمير حيدر أبي اللمع قائم مقاما عليهم[3].

فاعترض الأرثوذكس على ذلك وطالبوا بتعيين قائم مقام منهم وكانوا مؤيدين من روسيا ولما أقدم أسعد باشا عن سلخ قضاء جبيل الذي تسكنه عدّة طوائف عن قائم مقامية النصارى وجعله تابعا لبيروت، فاحتجت الدول الأوروبية على ذلك لدى الباب العالي وبعد مفاوضات طويلة رجع القضاء وملحقاته للقائم مقامية النصرانية.

وأعلن القنصل الروسي أنه لن يقبل خضوع الأرثوذكس لسلطان الموارنة، وطالب بأن يكون للأرثوذكس قائم مقام لهم، ولكن لم يؤخذ بهذا الاقتراح[4].

ووافقت بريطانيا على هذا التقسيم لأنه أعطى أنصارها الدروز لأول مرة في حياتهم منذ القرن 17م حكما إداريا وسياسيا يكون تحت النفوذ الإنجليزي[5].

أمّا فرنسا فقد قبلت بهذا الحلّ لأنه أنهى مشكلة المسيحيين، وحقق لهم فكرة الوطن القومي المسيحي، كما استطاعت الدولة العثمانية بذلك أن تقضي على الحكم اللبناني

---

[1]- عمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي، المرجع السابق، ص361.
[2]- كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، تر: نبيه أمين البعلبكي، ط 5، دار العلم، بيروت، 1968م، ص556. (أنظر الملحق (01) ص75).
[3]- نفسه، ص556.
[4]- عمر عبد العزيز عمر، دراسات في تاريخ العرب، المرجع السابق، ص387.
[5]- نفسه، ص387.

الوطني[1] ولكن هذا التقسيم واجهته عدّة مصاعب حيث أن منطقة الدروز لا تخلو من النصارى، وكذلك العكس صحيح فسرعان ما ظهر فشل هذا النظام، فلم يستطيع قائم مقام كلا المنطقتين التحكم في زمام الأمور، وظهرت المشاكل الاجتماعية ومشاكل الفلاحين وكثرت العصابات وساءت أحوال الجبل، فتعالت الأصوات خاصة الأوروبية بإعادة الشهابيين للحكم لكن الدولة العثمانية رفضت ذلك وكان إلى جانبها بريطانيا كذلك، فتجددت الحرب الطائفية سنة1845م، وساءت الأمور بشكل كارثي[2].

وجددت فرنسا دعوتها بعودة الحكم الشهابي ورفضت الدولة العثمانية ذلك، وأرادت إعادة الحكم المباشرة ثم تدخلت الدولة العثمانية وبعثت "شكيب أفندي" فذهب إلى سوريا وأعلن عن إصلاحات تقضي بنزع سلاح الطرفين والمساواة بينهما، وسعى للقضاء على النظام الإقطاعي، وحاول الحدّ من نفوذ القناصل الأوروبيين لكنهم ما إن غادر حتى رجعوا لعملهم المعتادواستغلواالانقسامات التي تحدث حتى بين الدروز والموارنة أنفسهم[3].

وفي سنة 1859م كثرت ثورات الفلاحين على مشايخهم، ولكن المشكلة حدثت في الأرياف المختلطة، بين النصارى والدروز من الفلاحين حيث أن كلا الطرفين فقد الثقة بالآخر فبدأ الأمر بنزاع مسلح بينهما كل هذا تسبب في الفتنة المشهورة في عام 1860م وطلب سكان المناطق المختلطة حماية القوات العثمانية، واقتتل الطرفان ببيروت وزحلة وامتدت الاضطرابات إلى المناطق المختلطة[4].

وضرب الدروز الحصار على دير القمر، وطلبت النجدة السريعة من نابلس ودمشق والقدس، وفي06 يوليو1860م دعا "خورشيد باشا" زعماء النصارى والدروز إلى بيروت وحث الطرفان على عقد صلح بينهما ودعاهم إلى تناسي الماضي وإلغاء نظام القائم مقامية لأنها سبب البلاء، وهكذا تمت المصالحة بين الدروز والنصارى دون علم القناصل أو توسّطهم[5].

ولكن بعدتوقيع الاتفاق بثلاثة أيام أدت أحداث دمشق إلى التدخل العسكري الأوروبي ففي 09 جويلية انقض عوام المسلمين في دمشق فجأة على حي النصارى وقتلوا نحو

[1]- كارل بروكلمان، المرجع السابق، ص565.
[2]- نفسه، 565.
[3]- عمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي، المرجع السابق، ص366-367.
[4]- نفسه، ص373-374.
[5]- عمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي، المرجع السابق، ص373-374.

5500 دون أن تتخذ السلطات أي إجراء ولم تتوقف المجازر إلا بتدخل علماء المسلمين على رأسهم الأمير عبد القادر الذي تدخل مع أتباعهم وأنجد المسيحيين وأوقف المجازر ضد النصارى، فعرف فضله ملوك أوروبا والسلطان عبد المجيد وكرّموه وأغدقوا عليه الألقاب[1].

وبعد أن انتشرت تفاصيل الحرب الأهلية اللبنانية في أوربا عقد سفراء الدول الأوروبية في الأستانة اجتماعا مع الصدر الأعظم أن لاتخاذ تدابير قاسية وسريعة تضع حدا للفتنة الطائفية في الجبل، فأخبرهم الصدر الأعظم أنه قرّر إيفاد وزير الخارجية إلى لبنان وأنها سترسل فرقا نظامية ووحدات من الأسطول العثماني إلى السواحل اللبنانية [2] وعزمت فرنسا على إرسال حملة إلى لبنان وذلك من أجل السيطرة والنفوذ في المنطقة وبسبب تعرّضها لأزمات اقتصادية لذلك فكرت في سوريا ولبنان كما كان نابليون يرى في بلاد الشام مصدر تموين هام للجيش الفرنسي بالخيول، وأصدر نابليون الثالث أوامر بإعداد حملة من ستة آلاف جندي وعهد بقيادتها إلى الجنرال "بوفور دوتيول"، ووصلت الحملة إلى بيروت في 26 أوت 1860م، وبمجرد وصوله حاول إظهار نفسه بأنه صاحب الأمر والنهي[3].

لكن فؤاد باشا تجاهله، ومن ناحية أخرى أرسلت الدول الأوروبية (بريطانيا، فرنسا، روسيا، بروسيا، النمسا) لجنة تحقيق دولية إلى بيروت للبحث في أسباب أحداث سوريا وبدأت اللجنة عملها في أكتوبر 1860م، وفي 09 جوان 1861م أجمع أعضاءها على إقرار نظام للبنان ثم التوقيع عليه في الأستانة وسمي "بالنظام الأساسي" وبموجبه صار لبنان سنجقا لبنانيا له استقلال داخلي، وأصبح على رأس البلاد متصرّفا مسيحيا كاثوليكيا يعيّنه الباب العالي، ويكون مسؤولا لدى الأستانة وهو عثماني غير لبناني وكوّنوا مجلسا إداريا يتكون من 12 عضوا يمثلون مختلف الطوائف 4 موارنة، 03 دروز، 2 روم أرثوذكس، 01 من الروم الكاثوليك و01 من السنة و01 من الشيعة[4].

---

[1]- كارل بروكلمان، المرجع السابق، ص573.
[2]- عمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي، المرجع السابق، ص374-375.
[3]- قيس نجيب العزاوي، الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، ط 2، الدار العربية للعلوم، لبنان، 2003م، ص100-101.
[4]- علي معطي، المرجع السابق، ص11.

أما أراضي المتصرفية فاقتصرت على مناطق جبل لبنان دون بيروت والبقاع ومنطقتي طرابلس وصيدا وقسّمت بموجب النظام الأساسي إلى سبع مناطق إدارية، على رأس كل واحدة قائم مقاماً، وقسّمت المناطق إلى نواحي عليها مُديرَين وينتخب الأهالي مختارا في كل قرية ويساعد المتصرف فصائل من الدرك اللبناني، وجُعلت للمورانة محاكم ابتدائية واستئنافية، وتقرر العمل بهذا النظام بمرحلة تجريبية مدتها 03 سنوات وفي عام 1864م أعيد النظر فيه وصيغ على شكله النهائي[1].

ولقد قام نظام المتصرفية ببعض الإنجازات في لبنان أهمها إرساء الإدارة اللبنانية على أسس حديثة، كما شهد لبنان خلال النصف الثاني من القرن 19م وفي عهد المتصرفية بالذات تطورا وتقدما كبيرا في أكثر من ميدان فوطّد المتصرفون دعائم الأمن والنظام ممّا أتاح لليقظة الفكرية مناخا ملائما للنمو والازدهار، لذلك أصبح لبنان في نهاية القرن 19م أكثر أجزاء الدولة العثمانية تقدما في مجال التربية العامة[2].

وبقيام الحرب العالمية I وهزيمة العثمانيين في جويلية عام 1918م، في معركة دابق بن عامر شمالي فلسطين سقطت سورية كلها في قبضة الانجليز، ودخل فيصل في هذه الأثناء دمشق وأقام بها حكومة عربية عسكرية باسم "الشريف حسين" ولكن هذا لم يدم طويلا ودخل الجنرال البريطاني "اللنبي" ومعه فرقة فرنسية احتلت سوريا وقسمت إلى ثلاث مناطق: منطقة جنوبية انجليزية (فلسطين)، ومنطقة شرقية عربية (سورية الداخلية)، ومنطقة شمالية فرنسية (لبنان والساحل السوري)، وفي أواخر أفريل عام 1920م، أقرّ مجلس الحلفاء الأعلى في سان ريمو الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان[3].

وما يمكن استنتاجه في نهاية هذا المبحث: أن العثمانيين لم يغيّروا كثيرا من النظم الإدارية التي كانت موجودة قبلهم، وأنّ بلاد الشام شهدت خلال القرن 19م تغيرات سياسية مهمة أبرزها:

-الحكم المصري ما بين (1832-1840م) وكانت الفترة رغم قصرها هامة في تاريخ بلاد الشام لما شهدته خلالها من تغيرات في شتى النواحي.

---

[1]- نفسه، ص12.
[2]- عمر عبد العزيز عمر، دراسات في تاريخ العرب، المرجع السابق، ص499-500.
[3]- نفسه، ص500.

-أدى انسحاب إبراهيم باشا إلى حدوث فراغ سياسي، حاولت العديد من الطوائف استغلاله، وهذا ما نتج عنه الكثير من الصدامات فيما بينها، أشهرها ما حدث بين الدروز والمورانة في جبل لبنان عام 1840م، فتدخلت الدول الأوروبية للوساطة وانتهى الأمر بفرض نظام القائم مقامية.

لكن المشاكل لم تنته بينهما لتبلغ ذروتها في عام1860م وتصبح مذابح بلغت حتى دمشق، ولم تتوقف إلا بتدخل علماء المسلمين أمثال الأمير عبد القادر الجزائري، وتدخلت الدول الأوروبية لتفرض مرة أخرى نظام المتصرفية الذي صار بموجبه جبل لبنان شبه مستقل عن العثمانيين، ومع الثورة العربية عام 1916م ينتهي الحكم العثماني في كامل بلاد الشام لتقع ضحية المشاريع التقسيمية الاستعمارية بين فرنسا وبريطانيا.

المبحث الثاني: الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية

تميزت بلاد الشام بوجود العديد من الطوائف والمذاهب، فمن المسلمين يوجد بها السنة والدروز والنُصيرية والمتاولة والإسماعيلية ويوجد بها من الطوائف المسيحية الموارنة والسريان واللاتين والكاثوليك، هذا بالإضافة إلى اليهود[1].

[1]- عبد الرازق عيسى عبد الرازق، التنصير الأمريكي في بلاد الشام، (1834-1914م)، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2005م، ص10.

وكان رعايا الدولة العثمانية من غير المسلمين يخضعون لنظام خاص أطلق عليه اسم "نظام الملل" وهو نظام يرعى شؤونهم الدينية، ويفصل في قضاياهم الشخصية، وفر لهم ضمانات وامتيازات هيّأت لهم مع الوقت سبل الانقطاع عن الأمة والتحالف مع الخارج [١]، وكانت الدولة العثمانية تعتبر الرؤساء الدينيين لكل طائفة غير مسلمة مسؤولين عن شؤون تلك الطائفة، وبذلك ساوت الدولة العثمانية في المعاملة بين رجال الدين من المسيحيين والمسلمين وضمنت لرؤساء الطوائف المسيحية في بلاد الشام قدرا كبيرا من الاحترام[٢].

ومن أشهر الطوائف الشيعية:

1. الدروز: نشأت العقيدة الدرزية الداعية إلى تأليه الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي (996-1021م) من دعوة نادى بها داع فارسي الأصل وهو محمد ابن إسماعيل الدرزي، أمّا واضع فلسفة العقيدة الدرزية هو داع فارسي آخر اسمه حمزة اللبّاد الزوزني، وكان خليفة حمزة في نشر الدعوة تلميذا -ربما كان مسيحيا سوريا- يدعى المقتني بهاء الدين (1042م)، والدروز يختلفون عن السنّة في أنهم لا يسمحون بتعدّد الزوجات، ويقيمون صلواتهم ليلة الجمعة في أبنية على غاية من البساطة تسمى "الخلوات" تبنى عادة على تلال أو روابي تشرف على قراهم واستقروا في جبل لبنان، حيث سميّ جبل الدروز[٣].

وفي أثناء انتشار الدرزية شمالا انضمت إليهم قبائل عربية ومستعربة مثل التنوخيين والمعنيين وآل أرسلان، وآل جنبلاط، الذين تزعموا -ولا يزالون- الدروز [٤]، وقد ادّعت كل من فرنسا وبريطانيا خلال القرنين 17و18م أن الدروز من أصل فرسانهما الصليبيين الذين سكنوا الجبال من الحروب الصليبية، وذلك من أجل التدخل في شؤون لبنان[٥].

2. المتـاولة: هم من الشيعة الإمامية واللفظ مشتقة من "متوالي" المحرّفة عن العبارة "مُت وليّا لعلي" وذلك من ولائهم لآل البيت [٦]، وأصلهم غير معروف وسكنوا جنوبي لبنان فيما

[١]- قيس نجيب العزاوي، المرجع السابق، ص94.
[٢]- عبد الرازق عيسى عبد الرازق، المرجع السابق، ص10.
[٣]- عمر عبد العزيز عمر، دراسات في تاريخ العرب، المرجع السابق، ص163.
[٤]- عمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي، المرجع السابق، ص163.
[٥]- عبد الرحمان بن محمد الشهري، التبشير في بلاد الشام، لبنان ، سوريا، فلسطين، الأردن، (رسالة ماجستير) إشراف سعد أحمد، جامعة الإمام محمد بن سعود، ص18-19.
[٦]- محمد التونجي، المرجع السابق، ص124.

يعرف بجبل عامر، وامتدوا إلى البقاع وسيطروا على بعلبك، ووجدت جالية منهم في دمشق، وكانت لهم علاقات بإيران ومنهم أسرة آل الصغير وآل حرفوش في بعلبك[1].

ومن أهم الطوائف المسيحية:

1. الكاثوليك: هي أكبر الطوائف عددا بين الطوائف المسيحية في بلاد الشام فهي تضم في جنباتها العديد من الأعراق مثل المورانة، الأروام، اللاتين والسريان، وكانت هذه الطائفة مرتبطة أساسا بروما وفي مقدمتها[2]:

أ/ الموارنة (المارونيين): سمّوا بهذا الاسم نسبة إلى القس السوري مارون الذي عاش في القرن الخامس الميلادي، وقيل بأنهم عرب ساميون، وعاشوا في وادي نهر العاصي شمالي سورية وعندما جاءت الفتوحات الإسلامية إلى بلاد الشام دخل بعضهم في الإسلام، وبقي البعض الآخر على نصرانيته تحت حماية المسلمين، وقد كان من بينهم وبين الطوائف الأخرى مثل النسطوريين واليعقوبيين خلافات أدت إلى نزوحهم إلى المناطق الشمالية من جبل لبنان[3].

كما وجدوا في دمشق وبعلبك، وكان عددهم عام 1872م حوالي 220.000 نسمة، وفي بلاد الشام ولهم محاكمهم وزعامتهم الخاصة، وصارت فرنسا بعد مذابح 1860م هي المسؤولة عن حماية المارونيين لأنهم كاثوليك[4].

ب/ روم الكاثوليك: في عام 1724 م شكّلوا طائفة جديدة انتخبوا بطريركا خاصا بهم واعترفت بهم الدولة العثمانية في 24 مارس 1833م، وكان لبطريركهم وكيل ينوب عنه في شؤون البطريركية في الأستانة ووجدوا المساعدة من أوروبا طوال القرنين17 و18م[5]. و18م[6].

2.الأرثوذكس: هذه الطائفة ضمت العديد من الأجناس التي تنتمي إلى المذهب الأرثوذكسي في مقدمتها: الروم، الأرمن، السريان، الأقباط، والأرثوذكس[6].

---

[1]- عمر عبد العزيز عمر، دراسات في تاريخ العرب، المرجع السابق، ص 279-280.
[2]- عبد الرازق عيسى عبد الرازق، المرجع السابق، ص45.
[3]- عبد الرحمان الشهري، المرجع السابق، ص18-19.
[4]- عبد الرازق عيسى عبد الرازق، المرجع السابق، ص ص45-49.
[5]- عبد الرازق عيسى عبد الرازق، المرجع السابق، ص51.
[6]- نفسه، ص ص53-57.

إضافة إلى اليهود بعدما أصدر السلطان بايزيد الثاني (1481-1512م) مرسوما يقضي بحسن معاملة اليهود في الدولة العثمانية باعتبارهم أهل ذمة، في ظل هذه التسهيلات وفد اليهود على بلاد الشام حيث عملوا في التجارة بموانئ الشام، واستقروا بكثرة في القدس وحيفا ويافا وصفد وطبريا ودمشق ولعبوا دورا بارزا في حلب وبيروت وعكا، وقد مثل حاخامات القدس أعلى سلطة دينية ليهود الشرق خاصة منذ منتصف القرن 19م وهو ما مثل عاملا قويا ساهم في حفاظ يهود الشرق على رابطتهم الدينية القومية بفلسطين[1].

وفي عهد الحكم المصري حاولوا توطيد دعائم المساواة السياسية والاجتماعية بين النصارى والمسلمين حتى نال النصارى في عهده حرية كبيرة حيث أخذوا ينافسون المسلمين في شتى المجالات[2].

وقد كانت مختلف الطوائف الدينية تلتجئ إلى الشام لأنها تتمتع بحماية طبيعية من الجبال لذا فهم في مأمن من أعدائهم، فانكبّت كل طائفة على نفسها في بيئتها الجبلية منعزلة عن من حولها، مما نمّ عوامل التعصب في داخلها وأدّى التقادم الزمني بين هجرات هذه الطوائف إلى اعتبار كلا منها صاحبة الحق الأول والأصيل في البلاد دون غيرها من الطوائف، وهنا نشأت النزاعات وبالتالي أدت للتدخل الأجنبي الباحث عن ذريعة لتبرير وجوده كما رأينا في فتنة الموارنة والدروز سنة1860م[3].

وبما أنّ الحكم العثماني على الولايات العربية كان حكما عسكريا وهذا ما أدى إلى زيادة الفروق الطبقية، وكان المجتمع الشامي يتألف من مجموعة من الطبقات أهمها:

1. الطبقة الحاكمة: وهم عثمانيون وعلى الرغم من أن هذه الطبقة كانت مستأثرة بالحكم، وعرفت بالتشديد السياسي والعسكري إلا أنها لم تتدخل في الشؤون الاجتماعية ولا الدينية ولا القومية للشعوب المحكومة، وذلك أن العثمانيين لم يكن عددهم كبيرا في بلاد الشام، ولكن هذا لم يمنع التمازج بين الطرفين والتأثر ببعضهم، فقد كان باشوات بلاد الشام يأتون بمقرّبيهم وذويهم ويستقرّون بأحياء خاصة بهم في البدء ثم لا يلبثوا أن يندمجوا مع السكان

[1]- نفسه، ص58-59.
[2]- عمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي، المرجع السابق، ص351.
[3]- عبد الرازق عيسى عبد الرازق، المرجع السابق، ص63.

ومازلت بعض الأحياء في حلب مثلا تحمل أسماء بعض الأسر والشخصيات النازحة مثل: قاضي عسكر، وآغاجق، أوغل بيك، وإبشير باشا[1].

ولقد اختار كثير من الجنود الانكشارية العيش في بعض مدن الشام وكذلك السباهية الذي نتج عن تزاوجهم بالسكان المحليين أسرة آل الحراكي في حماة.

2. الطبقة الثانية: وهم العلماء ورجال الدين وحضوا بمكانة عالية في المجتمع[2].

3. الطبقة الثالثة: وهم الحضر الذين يتمركزون في المراكز الحضارية المنتشرة معظمها على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط والمناطق القريبة منه.

4. الطبقة الرابعة: هم البدو الذين ينتشرون في المناطق الواقعة خارج المراكز الحضارية، وينتقلون في أرجاء الصحراء الواسعة، ومثلت عشائر تفرعت إلى فروع مثل عشيرة طي وبني مهدي وبني جورم، وبني ثعلبة ... الخ[3].

- الوضع الاقتصادي:

أطلّ القرن 19م وتجارة البلاد العربية عادية محدودة حيث كان كل قطر من الأقطار العربية يعيش وضعه الاقتصادي المحدود دون رابط يربط بين أجزائها، فلا طرق للمواصلات منتظمة ولا تبادل اقتصادي منتظم بل كان كل قطر منطوي على نفسه، مكتفيا بمنتوجاته ومنتوجات البلاد المتاخمة له، على عكس ما كانت عليه الحالة في أوروبا وأمريكا[4].

إلا أننا يمكن أن نستثني "جبل لبنان" من ذلك فقد انخرط في الاقتصاد العالمي مبكرا، وكان يتميّز عن معظم مناطق بلاد الشام، وهذا لانتشار الملكية الصغيرة فيه نسبيا وشبه غياب نظام التيمار، فقد كان معظم إنتاجه في بداية القرن 19م موجها لأغراض الاستهلاك الذاتي (من حنطة، دقيق، برغل، زيتون، الزيت، الصابون، والعنب، دبس، واللحم، بالإضافة إلى الحليب والجبن، الحبوب والخضار) وكانت القرى تتبادل بين بعضها ومع عشائر الرعيان ما فضل عن هذه مقابل ما نقص عن تلك، وقد شكلت الأراضي الزراعية

[1]- محمد التونجي، المرجع السابق، ص ص 78-82.
[2]- نفسه، ص ص 78-82.
[3]- فاضل بيّات، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني رؤية جديدة في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية، ط 1، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2003م، ص81.
[4]- محمد أسعد طلس، تاريخ العرب، ط2، دار الأندلس، 1979م، ج5، ص107.

والمراعي أساس الثروة، لذا راحت الأسر القروية وهي في غالبيتها مارونية تتوسع جنوباً وشرقاً بحثا عن أراضي زراعية جديدة وتعاون المقاطعجية الدروز مع هذا التوسّع إيجاباً[1].

وكانت السمة البارزة للاقتصاد في جبل لبنان هو أنه اقتصاد زراعي بالدرجة الأولى، وكانت زراعة التوت هي أكثر الزراعات رواجا في تلك الحقبة، ثم تأتي زراعة الزيتون التي لا تقل أهمية عن زراعة الحبوب وكذلك زراعة التبغ والبطاطا والبرتقال والعنب والليمون والخضار على اختلاف أنواعها[2].

كما كانت تربية المواشي ذات أهمية في الجبل، فقد قدرت أعدادها عام 1896م بـ156.055 رأس (بقر، غنم، ماعز، حمير، بغال..) وفي مجال الصناعة فقد كانت معامل الحرير ومعاصر الزيتون والخمور ودبغ الجلود منتشرة في مختلف المدن والقرى في الجبل. أمّا حركة التجارة فقد كانت ناشطة بشكل ملحوظ نحو أوروبا عبر مرافئ بيروت وصيدا وجونيه وجبيل، ومع المناطق المجاورة عبر سوريا[3].

أمّا المدن الشامية الأخرى مثل دمشق وطرابلس وصيدا (وهي مراكز الولايات إلى جانب حلب) فلم تتأثر بهذا التطور حتى نهاية الثلث الأول من القرن 19م وكانت أوضاعها تتمثل مباشرة بدورها كسوق زراعية للمناطق المحيطة بها، والواقعة ضمن نطاق سيطرتها وملكية وجهائها من انتعاش وتراجع لخطوط التجارة المتوسطية والداخلية[4].

وقد ظهرت آنذاك الكثير من الأسواق في هذه المدن ونأخذ على سبيل المثال: بيروت التي كانت تابعة لولاية صيدا، فمن أشهر أسواقها:

- **سوق الأساكفة:** وهو مخصص للأساكفة العاملون في مهنة الجلود والأحذية بمختلف أنواعها وأشكالها، وكان هذا السوق يقع في باطن بيروت قرب الجامع العمري الكبير[5].
- **سوق البازركان:** كان يجتمع في هذا السوق بصورة أساسية أصحاب المهنة المتعلقة بالأقمشة والخياطة، وتمركزت فيه دكاكين الخياطين الذين كانوا يصنعون الألبسة العثمانية والبيروتية المعروفة في تلك الفترة، وبه تجار الأقمشة الحريرية، وإلى جانب

---

[1]- شربل داغر وآخرون، عصر النهضة مقدمات ليبرالية للحداثة، ط 1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2000، ص130.

[2]- علي معطي، المرجع السابق، ص126.

[3]- نفسه، ص126.

[4]- شربل داغر وآخرون، المرجع السابق، ص131.

[5]- حسان حلاق، التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في بيروت والولايات العثمانية في القرن 19م سجلات المحكمة الشرعية في بيروت، الدار الجامعية، 1987م، ج1، ص23.

هذا فقد وجد به سوق الصياغة وموردست فيه المهن والحرف والتجارة المتعلقة بالحرير والذهب والفضة[1].

-**سوق الحدادين:** كان مركزا لعمل الحدّادين الذين كانوا يعملون في تصنيع الأشغال الحديدية وبالإضافة إلى هذه الأسواق وجدت أسواق أخرى تمثل التجمع المهني والصناعي والتجاري للمجتمع البيروتي أهمها:سوق البياطرة، وسوق الخضار، وسوق زاوية ومسجد التوبة وسوق الساحة، سوق الشعارين، سوق الطويلة، وسوق العطارين وسوق القطن[2].

كما عرفت المدن الشامية في العهد العثماني تنظيميا حرفيا حيث يجتمع أصحاب حرفة معينة ويضعون على رأس مجموعاتهم "شيخ مشايخ الحرف" الذي يعيّن من قبل القاضي وهو يهتم بمشاكلهم ويشرف على تنفيذ اتفاقياتهم ويرفع شكاويهم إلى القاضي ويتصل بالوالي[3].

وقد أدخل إبراهيم باشا عدة إصلاحات اقتصادية فترة توليه الحكم لبلاد الشام فرتب المالية وجعل نظاما لجباية الضرائب وإبطال المصادرات، وتقرير حق التملك وأحيا الزراعة والتجارة والصناعة وعمّم تربية دود القز "الحرير" والعمل على استخراج بعض المعادن ولاسيما معدن الفحم الحجري في قرنابل (لبنان)[4].

كما أنّ لبنان كانت الأوفر حضّا بالكثير من الإصلاحات في عهده، فقد ألغيّ فيها ضريبة الخوة التي فرضتها زعامات محلية، وألغى الأوضاع التي كانت تعطي للتاجر الأجنبي بمقتضى معاهدات الامتيازات تفوق على المواطن من أجل إعطاء المواطن فرصة مساوية للأجنبي، كما شجّع الحكم المصري التجار على توسيع نطاق أعمالهم بحيث لا تكون مقصورة على الجبل والموانئ والانفتاح على العالم الخارجي، وقضى نهائيا على نظام الالتزام.

غير أن الأمر لم يبق كذلك بسبب ما أصدره محمد علي لابنه في أوائل 1834م من أوامر أثقلت كاهل الأهالي بأعباء فادحة مثل احتكار الحرير، وأخذ ضريبة الرؤوس من

---

[1]- نفسه، ص24.
[2]- نفسه، ص24،25.
[3]- وجيه الكوثراني، السلطة والمجتمع والعمل السياسي في تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام، مركز الدراسات للوحدة العربية، لبنان، ص47.
[4]- عمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي، المرجع السابق، ص349.

الرجال كافة على اختلاف مذاهبهم وتجنيد الأهالي وإدخال "نظام السخرة"، وهو ما أدى لقيام الثورات ضدّهم[1].

وما يمكن استنتاجه من الوضع الاجتماعي في بلاد الشام أنها احتوت العديد من الطوائف والمذاهب منها المسلمة (السنية والشيعية) إضافة إلى وجود كبير للطوائف المسيحية أبرزها الكاثوليك، الأرثوذكس، وتدار شؤون غير المسلمين وفق نظام المِلل.

كما عرف المجتمع آنذاك فوارق طبقية ناتجة عن طبيعة الحكم العثماني في المنطقة.

أمّا في المجال الاقتصادي، فقد لاحظنا أن الوضع الاقتصادي كان بسيطا ولكن جبل لبنان عرف اقتصاد متميّز لانخراطه مبكرا في الاقتصاد العالمي، وذلك لانتشار الملكية الصغيرة، وكان اقتصاد هذه المنطقة اقتصادا زراعيا بالدرجة الأولى، ومن أهم المنتوجات (توت، زيتون، بطاطا، عنب).

كما كان لتربية المواشي أهمية كبيرة في المنطقة (البقر، الغنم..) وفي مجال الصناعة انتشرت معامل الحرير ومعاصر الزيتون، وكانت حركة التجارة نشطة بشكل ملحوظ.

أمّا المدن الشامية الأخرى مثل دمشق، طرابلس، وصيدا... فلم تتأثر بهذا التطور إلا في نهاية الثلث الأول من القرن 19م.

واشتهرت العديد من الأسواق مثل: سوق الأساكفة والحدادين...الخ.

[1]- عمر عبد العزيز عمر، دراسات في تاريخ العرب، المرجع السابق، ص366-367.

المبحث الثالث: الأوضاع الثقافية

كان الوضع العلمي والثقافي في القرن 18م متدثيا و هذا لأنّ الدولة العثمانية لم تكن تهتم بالتعليم، وتركت الاهتمام به لكل طائفة تقوم به حسبما ترى بمساهمة أوقاف المحسنين، وكان التعليم دينيا سواء عند المسلمين أو المسيحيين، ويتم في المساجد والأديرة[1].

وقد كان للمورانة فضل السبق في إنشاء المدارس في بلاد الشام قبل القرن 19م وذلك بفضل الجهود المبذولة من طرف رجال الدين فأسسوا كلية في زغنة عام1735م والأخرى في ع ين ورقة 1789م، والتي كان لها الفضل في تخريج الكثير من الأدباء والعلماء والأساتذة البارزين الذين ظهروا في النصف الأول من القرن19م[2].

وقد كان لإبراهيم باشا أثر في النهضة العلمية في بلاد الشام في القرن 19م حيث أنه عمل على إنشاء المدارس الابتدائية في جميع أنحاء البلاد، وإنشاء مدارس ثانوية في عدة مدن رئيسية، وكان يريد تخريج إطارات تساعده في خدمة أهدافه السياسية ومطالبه العسكرية حرصاً منه على غرس بذور الوعي القومي العربي، واستقدم مربيا فرنسيا كان

[1]- عبد الرازق عيسى، المرجع السابق، ص108.

[2]- جورج انطونيوس، يقظة العرب- تاريخ حركة العرب القومية -، تق: نبيه أمين فارس، تر: ناصر الدين الأسد، إحسان عباس، دار العلم للملايين، لبنان، ص100.

بعمل مع والده من أجل أن يقدم له النصح ، وأراد كذلك أن يهيأ لشباب البلاد تعليما خاصا يعدّهم للخدمة العسكرية، وأسّس كليات واسعة في دمشق وحلب وأنطاكية و كانوا يتعلمون ويقيمون على نفقة الحكومة، وتقدّم لهم مرتبات وكان في كلية دمشق نحو 600 طالب، وفي كلية حلب أزيد من 400، وكانوا يرتدون ملابس موحّدة ويتدربون على الفنون العسكرية، ولكن تجنيد إبراهيم لأبناء المسلمين أثار مخاوف آبائهم ودفعهم إلى أن ينشؤوا المدارس لتزاحم المدارس التي أنشأها إبراهيم، فأتاحوا بذلك لأبنائهم فرصة النجاة من الجندية التي كانوا يخشون عليهم منها، وقد أصبحوا يعنون عناية كبيرة بالتعليم المدني وظلت عنايتهم به بعد انسحاب إبراهيم تزداد قوّة مع مرور الزمن[1].

وبعد التدخل المتزايد من طرف الأوروبيين في شؤون الدولة العثمانية ومع تزايد خطر الإرساليات التبشيرية في القرن 19م انتبه السلاطين العثمانيون لكثرة المدارس الأجنبية فعمد إلى إيجاد بعض المدارس الابتدائية في حلب ودمشق وبيروت والقدس ومع عهد التنظيمات (1839-1876) بدأت حركة الإصلاحات في مرافق الدولة العثمانية المختلفة بممارسة الأساليب الغربية الحديثة في التعليم ، ففتحت مدارس مختلفة في مراكز الدولة، ولم تدخل هذه المدارس الحديثة إلى الولايات العثمانية إلا فيما بعد وذلك في الوقت الذي كانت تحاول إدخال الإصلاحات في مرافقها الإدارية والعسكرية، قامت بإنشاء مؤسسات تعليمية على الطراز الحديث غير أن التحديث في التعليم العام لم يتم إلا بعد إعلان فرمان الكلخانة فافتتحت ولأول مرة المدارس المتوسطة المسماة بالرشدية، وعلى الرغم من أن مستوى التدريس في هذه المدارس لم يكن رفيعا فإن إقامة هذه المدارس كانت تعد تجربة وإنجازا كبيرا لدولة لم تكن تملك غير كتاتيب الأطفال في التعليم[2].

فـفي دمشق مثلا لم يكتمل تنظيم المدارس إلا بعد صدور قانون المعارف العمومية عام 1869م، ولما تولى مدحت باشا [3] ولاية الشام أحب نشر العلم بين مختلف الطبقات

---

[1]- نفسه، ص103-104.

[2]- فاضل بيات، المرجع السابق، ص370.

[3]- مدحت باشا: ولد سنة 1238هـ/1822 م، في اسطنبول كان أبوه قاضيا، تعلم مدحت العربية والفارسية وتقلد عدة وظائف حتى كان واليا على الدانوب، وقضى على ثورات البلغار، وأصدر الدستور العثماني في أواخر 1876م، ثم عزله السلطان عبد الحميد، فسافر إلى لندن، ثم عاد واليا على الشام، فأزمير وحوكم لاتهامه في الاشتراك في تدبير قتل السلطان عبد العزيز، وصدر حكم بإعدامه لكن السلطان اكتفى بنفيه إلى الحجاز، توفي سنة1883، ويعتبر نموذجا للرجل التركي المثقف، ثقافة غربية والداعي للتغريب في الدولة العثمانية، ينظر: بشار عبد الكريم الجمل، عمار محمود الجمل، معجم الشخصيات التاريخية والعربية، ط1، دار غيداء، الأردن، 2008، ص274.

الاجتماعية، وعدّ مؤسس للكثير من المدارس في دمشق ، ممّا شجع الأهالي على إرسال أبنائهم إلى المدارس في عهده، كما فرض عقوبة على ولي كل طفل يبلغ السادسة من العمر ولم يرسله والده إلى المدرسة، وكان أهالي دمشق يميلون إلى بث روح التعليم فألفوا جمعية سموها "جمعية المقاصد الخيرية" تخصص جزءا من إيراد الأوقاف لبناء ودعم المدارس ، وكانت أشهر المدارس الإعدادية في دمشق (المكتب الإعدادي، مكتب عنبر..)[1].

وأصدر الباب العالي عام 1816م قانون إشراف الحكومة على التعليم بعد أن كان يشرف عليه العلماء من رجال الدين في كافة أرجاء الدولة العثمانية بإنشاء مجلس دائم للمعارف نص على مجانية التعليم بمختلف أنواعه ، وعلى تعيين معلمين من غير رجال الدين، وقسم التعليم إلى ثلاث درجات ابتدائي وثانوي وعال، وسنّت الدولة العثمانية نظاما عام 1852م، للحد من نشاط المدارس الأجنبية، وذلك بإدماج مجال التربية والحرف والصناعة وإخضاعها للمراقبة، كما كانت المدارس مفتوحة لرعايا الدولة من المسلمين وغيرهم، والذين يتم تعليمهم أصول دينهم ويدرّسون القراءة والكتابة والحساب والتاريخ.

كما حرصت الدولة العثمانية على إضعاف التأثير الأجنبي من خلال الإشراف على المدارس الخاصة، وفرض القيود على إنشائها غير أن ذلك لم ينفذ إلا في أواخر القرن 19 بسبب رفض مؤسسي المدارس وتدخل الدولة في شؤونهم[2].

وتخلص الأجانب من هذه الرقابة في عهد إبراهيم باشا الذي استنَّ قوانين وأنظمة جديدة تؤطر التعامل مع المسيحيين والتعايش معهم، وقد تلخّص ذلك في سياسة البيورلدي[3] التي وجّهها إبراهيم باشا عند احتلاله القدس إلى السلطات هناك ، وأمرهم بإلغاء الضرائب التي تجبى من أديرة ومعابد المسيحيين في القدس، وسمح لهم بترميم معابدهم وأديرتهم[4].

ففتح بذلك المجال أمام البعثات التبشيرية الأجنبية وكانت سنة 1834م سنة تنافس الإرساليات الكاثوليكية والبروتستانتية ، وكان من نتائج ذلك انتعاش اللغة العربية والحياة

---

[1]- محمد أحمد، مجلة جامعة دمشق (الحياة الثقافية في دمشق في العصر العثماني (1876-1918))، مج27، العدد 1+2، 2011، ص315.

[2]- أحمد حامد إبراهيم القضاة، نصارى القدس، دراسة في ضوء الوثائق العثمانية، ط 1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007، ص ص235-237.

[3]- البيورلدي: فعل ماض مبني للمجهول، مشتق من المصدر التركي بيورمق بمعنى أن يأمر ومعنى بيورلدي هو "أمر ب" تحولت إلى الصيغة الاسمية وصارت تعني الأمر المكتوب بالرسم الهمايوني من الصدر الأعظم أو من أحد الولاة . ينظر: عبد الرازق عيسى، المرجع السابق، ص60.

[4]- حسين العودات، العرب النصارى -عرض تاريخي-، ط1، مطبعة الأهالي، دمشق، 1992م، ص168-169.

الثقافية بصفة عامة[1]، وأكثروا من بناء المدارس مستغلين فرصة نقص موارد العلم والثقافة في البلاد، ونجحت في استقطاب الأهالي بمذاهبهم المختلفة وذلك بعد إدراكهم بأن التعليم هو أحسن ميدان للتبشير لأن حاجة الناس إليه لا تنقطع ، كما أن التعليم يضمن تنشئة أجيال صُبغوا على أيدي معلميهم بالصبغة التي يريدونها[2].

ومن أشهر المدارس "المدرسة البطريركية" التي أنشأ ها بطريرك الروم الكاثوليك غريغوريوس الأول عام 1865م، ثم عمد المرسلون الأمريكيون إلى نقل مدرستهم المؤسسة في عبية[3] عام1846م إلى بيروت عام1866، وسمّوها "المدرسة الكلية السورية الأنجيلية" فاقتدى بهم الآباء اليسوعيون[4].

وأسسوا سنة 1875م "كلية القديس يوسف" في بيروت، وفي تلك السنة نفسها أسس المطران يوسف الد بس "مدرسة الحكمة" المارونية كما أن الروم الأرثوذكس كانوا قد أسسوا "مدرسة الثلاثة أقمار" سنة 1862م، ثم "المدرسة السريانية" بإدارة الدكتور لويس صابونجي عام1864م[5].

أمّا عن الطباعة فقد تأخرت في الدخول للدولة العثمانية عموما، وهذا لأن السلاطين العثمانيين كانوا يخشون تحريف الكتب الدينية إذا ما طبعت [6]، ولكن المتنوّرين في السلطة استمروا بالضغوط لإدخال الطباعة لبلاد الشام فتمّ ذلك في عام 1610م، بواسطة بعض الرهبان الموارنة الذين جلبوها إلى لبنان في دير "قزحيا" [7]، ولمّا ظهرت أهمية الطباعة، انتشرت المطابع في الولايات العربية في العهد العثماني بدرجات متفاوتة وكانت المطابع منقسمة إلى قسمين مطابع رسمية، وأخرى أهلية[8].

---

[1]- جورج انطونيوس، المصدر السابق، ص99.
[2]- عبد الرازق عيسى، المرجع السابق، ص111. (أنظر الملاحق (02) و(03) و(04) ص ص76-77-78)
[3]- عبية: منطقة بجبل لبنان، تقع إلى الجنوب من منطقة كفر شيما قرب بيروت، انظر : عبد الرحمان الشهري، المرجع السابق، ص27.
[4]- اليسوعيون: نسبة إلى جمعية "السيوعيون" التي تأسست سنة 1534م، على يد أغناطيوس ليولا وفرانسيس اكسفير، ويسوع هو المسيح عليه السلام، وكلمة اليوسوعية في الإنجليزية تعني الماكر والمدبر للمكائد، وذلك نسبة للمكيدة التي دبروها للملكة البريطانية الأولى وهي إليزابيث. انظر: الشهري، المرجع السابق، ص20.
[5]- أديب مروة، الصحافة العربية نشأتها وتطورها، ط1، منشورات، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1961، ص136.
[6]-علي المحافظة، الحركات الفكرية في عصر النهضة في فلسطين والأردن، المطبعة الأهلية، بيروت،1987م، ص57.
[7]- محمد أحمد، المرجع السابق، ص323.
[8]- فاضل بيات، المرجع السابق، ص296.

ومن أهم المطابع في بلاد الشام "مطبعة روضة الشام " في دمشق تأسست سنة 1893م، "المطبعة الحميدية "1899[1]، "مطبعة ثمرات الفنون " بلبنان، وكذلك "المطبعة السورية" لصاحبها خليل أفندي الخوري[2].

ووجد في فلسطين نوعين من المطابع "مطابع الأديرة"، ومطابع خاصة مثل "مطبعة دوميان" في القدس1892م، "والمطابع اليهودية"[3].

أمّا في مجال الصحافة فكانت في عهد السلطان عبد العزيز (1861-1876م) الذي عُرف عنه تنشيطه النسبي للآداب والعلوم والصحافة تتمتع بنوع من الحرية البسيطة [4]

ونشّط حملة الأقلام وبرز دورهم في توجيه الحكم وبث روح الثقافة الجديدة في الشام، ولما زاد ضغط الصحفيين وتماديهم في الانتقادات الموجهة للحكومة العثمانية صدر إعلان خاص عام 1867م، احتفظ الباب العالي بموجبه لنفسه التعرض بطريق إداري ومستقل عن سلطة القانون ضد الصحف التي ترفض المبادئ التي يجب أن تستوحيها[5].

وانتهت حرية الصحافة حين جاء السلطان عبد الحميد في عام 1876م، الذي ضيّق الخناق على الصحف وأصحابها وأصدر عدة تعليمات منها:

-التحدث عن صحة السلطان والكتابة عن تطور الزراعة والصناعة والتجارة.

-لا يجوز نشر أي مقال أو خبر قبل أخذ موافقة وزارة المعارف.

-لا يجوز نشر ما يحدث من ثورات أو هزائم تقع داخل السلطنة.

وغيرها من الأمور الأخرى التي جعلت الصحافة تدور في نطاق ضيق مما اضطر ببعض الصحفيين إلى الهجرة إلى البلدان الأوروبية[6].

---

[1]- نفسه، ص ص333-350.

[2]- ولد سنة 1836م في الشويفات من أعمال لبنان، ثم انتقلت أسرته لبيروت ، تلقى مبادئ العلم في بعض المدارس الطائفية للروم الأرثوذكس، ثم تعلم التركية والفرنسية وعندما بلغ 21 عاما أنشأ جريدة "حديقة الأخبا ر" سنة 1857. انظر:جورجي زيدان، تراجم مشاهير الشرق في القرن19م، ط2، منشورات دار مكتبة الحياة، لبنان، ج2، ص ص 168-170. (أنظر الملحق (05) ص79).

[3]- علي المحافظة، المرجع السابق، ص297.

[4]- هاشم بن خاطر عبد الرحمان البركي، الدور التغريبي لبطرس البستاني في دائرة المعارف العربية، (بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في الثقافة الإسلامية) إشراف عبد الله بن حسن بركات، جامعة أم القرى، السعودية، 2010، ص26.

[5]- محمد أحمد، المرجع السابق، ص319-320.

[6]- نفسه، ص320.

أمّا الحديث عن الصحف والجرائد والمجلات وأهم رواد الصحافة في بلاد الشام في القرن19 م فقد استحسنا تناول كل منطقة على حدى:

ففي سوريا ظهر عدد كبير من الصحف الأدبية والسياسية في النصف الثاني من القرن 19م، نذكر منها "نفير سوريا" لبطرس البستاني، أصدرها سنة 1860[1]، دعا فيها إلى إصلاح ذات البين وشدّ عر ى الألفة بين الأهالي على اختلاف مذاهبهم بعد الحوادث الطائفية في نفس السنة، و "جريدة سوريا" وهي جريدة أسبوعية أصدرها راشد باشا والي سوريا سنة 1865م بدمشق نصفها باللغة العربية والآخر بالتركية تقوم بنشر أوامر الحكومة وقراراتها[2].

إضافة إلى صحيفة مرآة الأحوال لرزق الله حسون الحلبي [3] وعدة صحف أخرى، أمّا عن لبنان فيعود الفضل في تحريك عجلة الصحافة في النصف الثاني من القرن19م، لأولئك اللبنانيين خرّيجي المدارس التبشرية، ومن أبرز الصحف والمجلات [4] "حديقة الأخبار" 1858م، و"جريدة لبنان" 1867م، "جريدة الطبيب" 1877 في بيروت[5].

وفي فلسطين التي دخلتها الصحافة متأخرة بالنسبة إلى غيرها من الأقطار الشامية فقد صدرت أول صحيفة عام1876م اسمها "القدس الشريف" و"جريدة الغزال" الشهرية[6].

إنّ ما نستنتجته من خلال دراستنا للوضع الثقافي لبلاد الشام خلال القرن 19م هو أن الوضع كان يتميز بالركود في أول فترة، وهذ ا لعدم اهتمام الدولة العثمانية بالتعليم، ومع ذلك اهتم رجال الدين المسيحيين بإنشاء المدارس وخاصة الموارنة فكان لهم فضل السبق في ذلك.

كما كان لإبراهيم باشا فضلا كبيرا في النهضة العلمية والتي شهدتها بلاد الشام في عهده، وعندما شعرت الدولة العثمانية بخطورة تزايد الإرسال يات وفتحها للمدارس

---

[1]- محمد الخير عبد القادر، المرجع السابق، ص47.

[2]- أديب مروة، المرجع السابق، ص153-154.

[3]- من أسرة حسون الأرمينية التي نشأت في ديار بكر، وقد جاء جدها الأعلى وسكن حلب، وذهب أحد أبنائه إلى الأستانة وبقيت سلالته تعرف باسم بني الحسون، واشتهر هذا الرجل بالعلم، ولد سنة1825م، تعلم اللغة التركية والعربية والفرنسية والأرمينية، انظر: جورجي زيدان، المرجع السابق، ص172-173.

[4]- مفيدة محمد إبراهيم، عصر النهضة العربية بين الحقيقة والوهم، ط 1 ، دار مجدلاوي، عمّان، ص144.(أنظر الملحق (06)، (07) ص ص80،81).

[5]- فليب دي طرازي، تاريخ الصحافة العربية، المطبعة الأدبية، بيروت، 1913م، مج1، ص4.

[6]- علي المحافظة، المرجع السابق، ص68.

التبشيرية، قام السلاطين بتشجيع إنشاء المدارس وخاصة في فترة التنظيمات بالإضافة إلى جهود مدحت باشا الرامية لنشر العلم بين مختلف الطبقات الاجتماعية.

أمّا عن مجالي الطباعة والصحافة فقد شهدتا انتعاشا كبيرا في القرن التاسع عشر بسبب نقل الإرساليات إلى بلاد الشام وتشجيعهم على إصدار الصحف بعدما كانت بلاد الشام شبه خالية من الصحف إلا ما تقاطر عليها من استانبول.

المبحث الأول: مفهوم التبشير وبواعثه وأهدافه

وفي هذا الفصل سنحاول التطرّق لصلب موضوعنا بتناول مفهوم التبشير وكيف تطوّر في شكل إرساليات استطاعت أن تتهاطل على بلاد الشام، وأن يكون لها دور كبير في تاريخ المنطقة.

مفهوم التبشير: كلمة التبشير لها عدّة تعاريف لغوية واصطلاحية.

أ- لغة:

التبشير هو الإخبار المفاجئ بخبر يظهر أثره على بشرة الوجه خاصة، وعلى باقي الجسم عامة، سواءا كان هذا الخبر سارّا أو غير سار، هذا في الأصل ولكن غلب استعماله في الإخبار المفاجئ بخبر سار طيّب يُسّر له الإنسان حين يسمعه [1]، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾[2] مع أننا نجده أحيانا قليلة في الأخبار غير السارة مثل قوله تعالى : ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[3].

كما تعني لفظة تبشير في اليونانية "Evangelism" وهي مشتقة من كلمة "إنجيل" التي تعني البشرى "Evangel"[4].

ب- اصطلاحاً: له عدّة تعاريف اصطلاحية منها:

1. هو تنظيم تربوي تعليمي يجري به إخراج المسلمين من عقيدتهم ومفاهيمهم عن طريق استغلال الطلاب والمرضى لتحويل عقائدهم والتأثير على مفاهيمهم[5].
2. يقصد به الإشارة لمحاولات الدول الغربية نشر المسيحية بين الأمم الأخرى سواءًا مسلمين أو يهود أو أصحاب الديانات الأخرى، وحتى بين المخالفين لهم في المذهب من أتباع المسيحية نفسها[6].

---

[1]- سلمان سلامة عبد المالك، أضواء على التبشير والمبشرين، ط1، مطبعة الأمانة، مصر، 1994، ص18.
[2]- سورة الحجر: آية53.
[3]- سورة التوبة: آية34.
[4]- كرم شلبي،الإذاعات التنصيرية الموجهة إلى المسلمين العرب، ط1، مكتبة التراث الإسلامي،1991، مصر، ص17.
[5]- سلمان سلامة عبد المالك، المرجع السابق، ص22.
[6]- عبد الرازق عيسى، المرجع السابق، ص18.

3. وعند المسحيين هو إيصال الخبر المفرح المتمثل في التعاليم المسيحية إلى أطراف العالم ونشر الدعوة المقدسة[1].

كما يقول أحد المبشّرين "إننا نريدهم أن يصبحوا مسيحيين"[2].

وقد بدأ التبشير المنظم في شكل بعثات وإرساليات تبشيرية إلى بلاد الشام في القرن 17م[3]، إذ مارست البعثات التبشيرية نشاطها في بعض ولايات الدولة العثمانية وبخاصة في ولايات بلاد الشام وعلى وجه التحديد عام 1625م، وتنتمي هذه البعثات إلى مختلف الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية فهي كاثوليكية فرنسية ألمانية وبروتستانتي ة أنجلو أمريكية وأرثوذكسية روسية[4].

أمّا الكاثوليك: وهم أتباع البابا في روما وأهم ما يتميزون به هو قولهم بأن روح القدس انبثق من الأب والابن معا، وأن البابا في الفاتيكان هو الرئيس العام على جميع الكنائس الكاثوليكية، والكاثوليك هم أكثر الأوروبيين وشعوب أمريكا الجنوبية وتسمى كنيستهم الكنيسة الغربية[5].

أمّا عن الإرساليات الكاثوليكية فتنتسب إلى اليسوعيين أو الكبوشيين، أو الكرمليين وكان من العسير عليها بحكم التعصّب الشديد الذي كان يسود ذلك الوقت أن تعمل خارج نطاقها، ولذلك اضطرت إلى أن تحصر معظم جهودها في رعاية الطوائف المسيحية الموالية لكنيسة روما، وكان اليسوعيون أنشط هذه الجمعيات، وتعود صلتهم بالشام إلى سنة 1625م، وبسبب انقطاع المساندة من فرنسا لانشغالها بأحداث الثورة عطلت جمعيتهم في سنة 1773 م، ولم يستأنفوا أعمالهم إلا في أوائل القرن 19م[6].

والأرثوذكس: وهم النصارى الشرقيون الذين تبعوا الكنيسة الشرقية القسطنطينية وأهم ما يتميّزون به ما يلي: أن روح القدس انبثق عندهم من الأب فقط، وهم لا يجتمعون تحت

---

[1]- جميلة معاشي، المرجع السابق، ص2.
[2]- محمد السيد الجليند، الاستشراق والتبشير، دار قباء، مصر، 1999، ص103.
[3]- جميلة معاشي، المرجع السابق، ص27.
[4]- محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، ط 2، دار النفائس، 2008، بيروت، ص582.
[5]- أكرم كساب، التنصير مفهومه، جذوره، أهدافه، أنواعه، وسائله، صولاته، مركز التنوير الإسلامي، ص32.
[6]- جورج أنطونيوس، المصدر السابق، ص97، 98.

لواء رئيس واحد بل كل كنيسة مستقلة بنفسها، وهذا المذهب ينتشر في أوروبا الشرقية وروسيا والبلاد العربية، وقد ركزت إرسالياتهم على فلسطين[1].

وعن البروتستانت فهم يسمون الإنجيليين وهم أتباع مارتن لوثر الذي ظهر في أوائل القرن 16م بألمانيا وكان ينادي بإصلاح الكنيسة وتخليصها من الفساد الذي صار صبغة لها، وأهم ما يعتقدونه: أن صكوك الغفران دجل وكذب وأن الخطايا والذنوب لا تغفر إلا بالندم والتوبة، وليس لكنائسهم رئيسا عاما يتبعون قوله، وينتشر هذا المذهب بألمانيا وبريطانيا وبلدان من أوروبا وأمريكا الشمالية، وكان لهم الدور الأبرز في بلاد الشام في القرن 19م[2].

وقد استفادت هذه الإرساليات من عدّة عوامل وظروف ساعدتها على التغلغل في بلاد الشام في القرن 19م.

فإذا نظرنا للدوافع والأسباب العامة المؤدية للتبشير فنجدها دينية وسياسية واقتصادية...الخ.

أولا: الدوافع الدينية

- اعتقادهم بأن التبشير هو مهمة مسيحية أصلا غايتها عرض الإيمان المسيحي على من لم يعرفه بقصد اجتذابه إلى المسيحية[3]، فقد جاء في إنجيل متّى " فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمّدوهم باسم الأب والابن والروح القدس وعلّموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر"[4].
- ظهور اليقظة الدينية في انجلترا منذ أواخر القرن 18م، وما قابلها من يقظة دينية في الولايات المتحدة الأمريكية التي تمكنت فيما يسمى بـ "روح انجلترا الجديدة" لذا ظهرت العديد من الجمعيات التي كرّست نفسها لحمل الإنجيل لجميع البشر[5].
- أثر الحروب الصليبية بمعنى أن العداوة القديمة بين العالم المسيحي والإسلامي[6].

ثانيا: السياسية والاقتصادية

---

[1]- أكرم كساب، المرجع السابق، ص32،33.
[2]- نفسه، ص33.
[3]- عبد الرازق عيسى، المرجع السابق، ص19.
[4]- كرم شلبي، المرجع السابق، ص15.
[5]- عبد الرازق عيسى، المرجع السابق، ص20.
[6]- عمر فروخ ومصطفى خالدي، التبشير والإستعمار في البلاد العربية، بيروت، 1986، ص47.

استغل التبشير استغلالا حرَّفه عن وجهته الأساسية حتى أصبح وسيلة للإستعمار يستغله لفرض سيطرته، ومن هذا المنطلق أصبح التعاون وثيقا بين التبشير والاستعمار وعلى هذا الأساس ففي القرن 19م ازدادت المطامع السياسية والاقتصادية في أملاك الدولة العثمانية[1].

وكما أنهم رأوا في الإسلام قوة سياسية تؤرّق وجودهم في المستعمرات ومن ثم تعرقل مصالحهم الاقتصادية المتمثلة في استثمار الأسواق والثروات، وهكذا صار الدمج بين الأنشطة السياسية والاقتصادية والدينية[2]، هذا بالنسبة للدوافع العامة.

أمّا عن الظروف والأسباب المباشرة التي ساعدت الإرساليات على النشاط في بلاد الشام في 19م:

فقد عرفت الدول الأوروبية المتنافسة من أجل الانقضاض على الدولة العثمانية التي شهدت مرحلة الضعف في نهاية حكمها أن الوقت قد حان للتخلص منها مستغلة أشكالا مختلفة من وسائل السيطرة عليها، ولعل من بين تلك الوسائل والذرائع الامتيازات الأوروبية داخل الدولة العثمانية، ومسألة الأقليات وتأليبها ضد الحكم العثماني، الحروب والضغط العسكري، التنظيمات والإصلاحات العثمانية[3]، ويمكن أن نتعرض لبعضها:

أ/ الامتيازات الأوروبية: بدأت العلاقات العثمانية الأوروبية بُعيد قيام الإمبراطورية العثمانية، وقد عبرت هذه العلاقات عن نفسها بتوقيع اتفاقيات ومعاهدات تجارية بين الطرفين خاصة بعد ضعف الدولة العثمانية، ووقع العثمانيون أول معاهدة مع البنادقة وذلك عام 1521م[4]، كما توصل الفرنسيون إلى معاهدة مع السلطان سليمان القانوني (1520-1566م) في 1539م حصلوا من خلالها على حرية السفر للرّعايا الفرنسيين داخل الدولة العثمانية[5].

وفي عام 1740م وقع السلطان محمود الثاني(1807-1839م) معاهدة مع لويس الخامس، فتح بموجبها المناطق المقدسة لجميع المسحيين الذين وفدوا على الإمبراطورية

---

[1]- عبد الرازق عيسى، المرجع السابق، ص20.
[2]- كرم شلبي، المرجع السابق، ص17.
[3]- حسن العودات، المرجع السابق، ص160.
[4]- نفسه، ص160.
[5]- محمد فريد بك المحامي، المصدر السابق، ص76.

تحت حماية العلم الفرنسي، واتخذها الفرنسيون أساسا لحق حماية جميع المسيحيين الكاثوليك في سوريا ثم فتحوا قنصليات عدة مدن سورية، وكذلك فعل البريطانيون[1].

أمّا روسيا فقد وقعت معاهدة بدورها عام 1829م جاء في البند السابع:"يتمتع الرعايا الروس في سائر أنحاء الدولة العثمانية بحرية التجارة التامة، وأخذت هذه الامتيازات تتوسع شيئا فشيئا حتى صارت باباً للتدخل الأجنبي، وإثارة الفتن الداخلية وفتح مجالا واسعا لتدخل الدول الأوروبية في شؤون الطوائف المسيحية وإيفاد إرساليات تبشيرية إلى داخل الدولة"[2].

ب/ النتائج المترتبة عن التنظيمات الإصلاحية العثمانية بالنسبة لغير المسلمين:

كان الحكم المصري للشام في ثلاثينات القرن 19م على يد إبراهيم باشا قد حمل سياسة التسامح الديني وعدم التفريق بين المسلمين وغيرهم أمام الدولة والقانون، وقد فتح هذا الاتجاه العلماني أبواب الأقليات الشامية أمام البعثات التبشيرية الغربية، فاضطر العثمانيون بعد هذه التغيرات التي أحدثها الحكم المصري ببلاد الشام إلى إدخال إصلاحات في عهد السلطان محمود الثاني، والتنظيمات الخيرية (1839-1908م) والتي أرادت بها الدولة العثمانية مواكبة التطورات الحاصلة في أوروبا والوقوف في وجه أطماعهم[3].

ومن هذه التنظيمات نجد "خط الشريف كلخانة" سنة 1839[4] و"الخط الهمايوني" سنة 1856م[5] ودستور 1876م الذي أصدره السلطان عبد الحميد الثاني وذلك عندما تعالت الأصوات للمطالبة بالدستور ومشروطية الحكم بالقانون وإلغاء الحكم الاستبدادي المطلق [6]

وقد نتج عن هذه التنظيمات:

- زيارة ترابط الجماعات المسيحية ونهوضها بسبب الحرية التي منحتها لها التنظيمات.
- تعزّز موقع غير المسلمين في الدولة ومشاركتهم في إدارة الولايات.

---

[1]- حسين العودات، المرجع السابق، ص161.

[2]- نفسه، ص162.

[3]- جلال يحي، العالم العربي الحديث والمعاصر، المكتب الجامعي الحديث، مصر، 2003، ص158.

[4]- خط شريف كلخانة: أصدره السلطان عبد الم جيد سنة 1839م وأعلنه الصدر الأعظم رشيد باشا بعد انهزام الجيش العثماني في معركة "اينتاب" أما م الجيش المصري ، وقرئ المنشور في قصر كلخانة وهو منشور عرضت فيه الدولة العثمانية ضرورة مواكبة التطورات الأوروبية، كما أقرت فيه التسامح الديني بين مختلف الرعايا وضمان حق الأمن والرعاية لغير المسلمين. ينظر: الغالي غربي، المرجع السابق، ص152.

[5]- الخط الهمايوني: أصدره السلطان عبد المجيد كذلك سنة 1856م، أكد فيه إصلاحات كلخانة ووس |عها وفتح باب الوظائف العامة والمدارس المدنية والعسكرية أمام الجميع، وأفسح المجال أمام الأجانب لشراء العقارات في الإمبراطورية وأكد احترام الامتيازات للطوائف الدينية. ينظر: حسين العودات، المرجع السابق، ص173.

[6]- الغالي غربي، المرجع السابق، ص157، 158.

- إلغاء الجزية سنة 1857م، واعتراف الدولة العثمانية بحق هذه الطوائف بممارسة شعائرها وبناء الكنائس وتم عام 1847م إحياء كنيسة القدس اللاتينية التي اندثرت بعد الحروب الصليبية[1].

ج/ مشكلة الأقليات: تعتبر مشكلة الأقليات الدينية والطائفية والقومية من بين المشاكل التي حاولت الدول الأوروبية الضغط بها على الدولة العثمانية، فقد عملت هذه الدولة على تحريض الأقليّات وإثارتها ضد الحكم العثماني، وإضعاف هذه الأخيرة وبالتالي إخضاعها لمطالبهم وتحقيق مصالحهم وخاصة مع نهاية القرن 18م، وحاولت الدول الأوروبية إيجاد أتباع لها من مختلف الأقليات والقوميات من أجل تفتيت وحدة الدولة العثمانية وتسهيل غزوها وهو ما حدث في بلاد الشام أيضاً[2].

ويعبّر عن ذلك يوسف كرم الماروني في رسالة إلى البطريرك الماروني "بولس" بقوله: "لقد أصبحت أمورنا في هذه الأيام تابعة لانكلترا وفرنسا وإذا ضرب أحدهم جاره تصبح المسألة انكليزية فرنساوية وربما قامت انكلترا وفرنسا من أجل فنجان قهوة يُهرق على أرض لبنان"[3].

إذ تُعد أزمة لبنان التي بدأت منذ 1840م من بين الأزمات الداخلية الفتاكة والنازعات الطائفية، التي استطاعت من خلالها الدول الأوربية كسب الطوائف المتناحرة لاستخدامها من أجل التدخل وتحقيق مصالحها من خلالهم، وبدأت كل دولة تسعى لتحويل الطوائف المسيحية المخالفة إلى طائفة موالية وموافقة في المذهب [4] مما سبب التنافس بينهم وحدَّ الصراع[5].

أمّا عن أهداف هذه الإرساليات فقد اختلفت من بعثة إلى أخرى ومن بلد إلى آخر ومن شخص لآخر، وهذا ما يفسّر تنافس مختلف الإرساليات ويمكن أن نقسم الأهداف إلى:

الأهداف السياسية: إنّ هدف مختلف الدول من وراء حمايتها للحركة التبشيرية هو مصالحها السياسية والدليل هو أن فرنسا حاربت اليسوعيين في أرضها ولم تعترف بهم

[1]- كمال السعيد حبيب، المرجع السابق، ص440.
[2]- مفيدة محمد إبراهيم، المرجع السابق، ص74، 75.
[3]- كمال السعيد حبيب، المرجع السابق، 440.
[4]- العزاوي قيس نجيب، المرجع السابق، ص100.
[5]- مفيدة محمد إبراهيم، المرجع السابق، ص75.

هناك، لكنها تدّعي حمايتهم في بلاد الشام [1]، كذلك أمريكا فعلت نفس الشيء مع الإرساليات البروتستانتية، فيقول شكيب أسلان في هذا الصدد: "إن كان المقصود من التبشير هو الدعوة إلى الإنجيل، فالمسلمون يؤمنون بالإنجيل وبرسالة عيسى عليه السلام، وإن كانت الدعوة إلى الإنجيل في الظاهر والسيطرة الأوروبية في الباطن فهذا حلم من أحلام المبشرين"، كما يقول النائب الفرنسي "فرناند انجران": "إنّ المبشر يعمل من أجل ازدهار الفكرة الاستعمارية للبلاد التي يُنصّرها" [2].

وبذلك فقد كان التبشير هو المقدمة للغزو الاستعماري للعالم العربي، وبعد أن كانت الإرساليات التبشيرية في مرحلتها الأولى أهلية وبعيدة عن الحكومة، ثم التقت المصلحة بينهما فأمدّ المبشرون الاستعمار بالمعلومات وطرق السيطرة على البلاد مقابل حمايتهم ودعمهم في عملهم [3].

الأهداف المذهبية: دخلت الإرساليات إلى بلاد الشام سعيا منها لاستقطاب أكبر عدد ممكن من العناصر سواءا مسلمة أو مسيحية إلى مذهبها على اختلافها فنتج عنه تضارب أهداف الإرساليات المختلفة مما أدى إلى صراعات مذهبية، ومهاجمات في الجرائد والصحف والمجلات والمؤتمرات التي أنشأت لهذا الغرض [4].

الأهداف الشخصية: صارت هي في مقدمة الأهداف، خاصة في الفترة الأخيرة من تاريخ التبشير، فقد خرج الكثير من المبشرين لا لنصرة الدين وإنما لتحقيق أهداف لم يستطيعوا تحقيقها داخل بلدهم، ومن الأمثلة على ذلك نجد المبشر الإنجليزي "بلدوين" الذي إدعى بأنه نصّر مجموعة من المسلمين وأرسل إلى الهيئة التي يعمل ضمنها يطلب مساعدته بالأموال، لكن اكتشفوا فيما بعد أنه لم يُنصِّر ولا مسلما واحدا، إنما أراد السطو على أموال الهيئة [5].

---

[1]- Rafel Herzsten ".La France et retour Der jésuites au le vont au sein de la communauté" maronite un nouveau modèle de compromis pédacogiguent, journal d'étude des relations international au Moyen-Orient, janvier 2007, p1.

[2]- جميلة معاشي، المرجع السابق، ص33.

[3]- عبد الرازق عيسى، المرجع السابق، ص21.

[4]- أنور الجندي، العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، ط1، دار المعرفة، 1970، ص288.

[5]- جميلة معاشي، المرجع السابق، ص36.

وقد جعلت هذه الأهداف المادية المبشّر ينتقل –أحيانا- من مذهب لآخر جريا وراء مصالحه الخاصة لا إيمانا منه بمقومات المذهب، وقد أطلق على أحد المبشرين الإنجليز عندما صار ينتقل من مذهب لآخر "بالحرباء"[1].

المبحث الثاني: أهم الإرساليات التبشيرية الناشطة خلال القرن19م

1- الإرساليات البروتستانتية:

أ- الأمريكية:

سبق وأن ذكرنا أن أهمّ دولتان تتبنيان المذهب البروتستانتي هما أمريكا وبريطانيا ويعتبر الأمريكيون من أقوى المبشرين في لبنان[2]، بحيث اتخذوا بيروت قاعدة لعملياتهم فلما جاءوا من مالطة سنة 1820 ، وحاولوا مدَّ نشاطهم صوب الشرق، ولم يكن في سوريا في ذلك الوقت طوائف بروتستانتيّة، فعمد الأمريكيون إلى تحويل الكاثوليك والأرثوذكس إلى المذهب البروتستانتي، ولقد أشار نشاط البعثات شعور الأهالي ضدهم، مما أدّى إلى حصر مجهوداتهم في دوائر صغيرة وظل الأمريكيون يقتصرون عملهم داخل أسوار مدينة

[1]- نفسه، ص37.
[2]- عبد الرحمان الشهري، المرجع السابق، ص26.

بيروت، وقد اقتصر نشاطهم في بداية الأمر على محاولة كسب الأهالي إلى الدين المسيحي أو تحويلهم من مذهبٍ إلى أخر، ولكن مع مجيء الحكم المصري للشام تغيرت الأوضاع، وتوافدت أعداد هامة من المبشرين البروتستانت وغيرهم بشكل ساعد انتعاش اللغة العربية وإلى بروز حركة فكرية ظهرت في الأدب ثم انتقل بعد ذلك إلى السياسة[1].

كان المبشّرون البروتستانت قبل عام 1850 يعتمدون على الحماية البريطانية، ثم نالوا بعد ذلك حماية الدبلوماسية الأمريكية، وقد تعدت المحطات التبشيرية للمذهب البروتستانتي وهي كالتالي:

أ- محطة مالطة: عندما قرّر المجلس الأمريكي للإرساليات أن يرسل إرسالية للشام اختار مالطة كمحطة أولى لها، ومنها يراقب أحداث الشام [2]. وكانت هذه المحطة تحت السيطرة البريطانية منذ القرن 19م[3] ، لذلك كانت أكثر الأماكن الملائمة، فقد أسَّسَ الأمريكيون مطبعتهم الخاصة بهم عام 1822، ومن مالطة تقدم "بارسنز" و"بليني فسك" [4]، نحو الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط في رحلة استكشافية، فوقع اختيارهم على بيروت لأن تكون المحطة الأولى في بلاد الشام، وذلك لتعددها الطائفي، ولوقوعها وسط العالم العربي، لكن لم ينتقل مقرهم إلى بيروت إلا في سنة1833.

وقد كان اهتمامهم في مالطة موجّه نحو الترجمة والطباعة، وتعلم اللغة العربية وبعث الكراريس التبشيرية إلى الشام كمقدمات للعمل التبشيري[5].

ب- محطة لبنان: لقد ركز المبشرون البروتستانت نشاطهم في هذه المحطة، واتخذوا العديد من المناطق بها مستقرًا ومركز إشعاع لنشاطهم ومن أهمّها:

ج- محطة بيروت: منذ العشرينات من القرن 19م بدأت الأنظار تتجه إلى بيروت، فقد قدم كل من "بليني فسك" و"إسحاق بيرد" سنة 1822[6] ثم المستر"جودل" الذي وصل بيروت في خريف1823 ومعه المتسر "بيرد"، كما وصل في ديسمبر1825 مستر "نيكولايسون" من انجلترا كمبشّر لليهود، وهؤلاء الثلاثة هم المبشّرون البروتستانت في الشام كلها، وفي

---

[1]- جلال يحي، المرجع السابق، ص186.
[2]- عبد الرازق عيسى، المرجع السابق، ص83.
[3]- هنري لورانس، "المملكة المستحيلة" فرنسا وتكوين العالم العربي الحديث ، تر: بشير السباعي، ط1، دار سنا للنشر، مصر، 1997، ص168.
[4]- بليني فسك: هو أول مبشر أمريكي زار بيروت. ينظر: عبد الرازق عيسى، المرجع السابق، ص76.
[5]- عبد الرازق عيسى، المرجع السابق، ص75.
[6]- نفسه، ص76.

عام 1826 اضطروا لحصر جهودهم التبشيرية داخل بيروت بعدما حاولت الدولة العثمانية منعهم من توزيع الأناجيل العربية [1] ، ونتيجة لعدم الاستقرار في البلاد عمدوا لمغادرة الشام إلى مالطة سنة 1828، لكن باشروا عملهم بها مع بدايات الثلاثينات من القرن 19م ونقلوا مطبعتهم من مالطة إلى بيروت التي أصبحت المركز الرئيسي لهم في الشرق الأوسط كله[2].

كما يعتبر مجيء رائد التبشير الأمريكي "إيلي سميث" [3] وزوجته سنة 1834، وقيامهما بنشاطات ثقافية وتبشيرية هامة، عاملا مساعدا على فرض المذهب البروتستانتي في المنطقة ثم أسسّوا كنيسة صغيرة في بيروت، وركزوا على الطباعة والتعليم، وضم الأتباع عن طريقهما، وبث الأفكار الدينية والتبشيرية في كتبهم التي طبعت في بيروت وتقديم البعض منها لأتباع المذاهب الأخرى لضمّهم إليهم وتشكيكهم في شعائر مذاهبهم ومعتقداتهم[4].

وفي عام 1848م تم تأسيس أول كنيسة إنجيلية في بيروت بلغ عدد أعضائها 19 عضوا وأصبح اسمها الكنيسة الإنجيلية الوطنية [5]، كما جاءت إرسالية إلى بيروت سنة 1859م تحت قيادة المبشر الأمريكي "دانيال بلس" الذي حدّد المنهج الدراسي الذي ستسير عليه الكلية المسيحية ببيروت، وقال إنه منهج التوراة[6].

وبدأ عدد البروتستانت يزداد شيئا فشيئا. لكن في عام 1860م أصيبت الأعمال التبشيرية البروتستانتية بالتوقف وذلك بسبب مذابح السّتين الشهيرة، وانتشار القحط والطاعون في المنطقة لكنهم باشروا عملهم من جديد[7].

وبذلك نقول لقد لعبت الإرساليات البروتستانتية ببيروت دورا هاما في إيجاد طائفة بروتستانتية فيها من العدم، وساعدهم في عملهم اعتراف الدولة العثمانية بهم كطائفة

---

[1]- هنري لورانس، المرجع السابق، ص168، 169

[2]- عبد الفتاح غراب، العمل التنصيري في العالم العربي رصد لأهم مراحله التاريخية والمعاصرة ، مكتبة البدر، 2007، ص41.

[3]- ولد سنة 1801م، وهو أحد المبشرين الأمريكان أشرف في مالطة على مطبعة البعثة وفي سنة 1827م جاء إلى بيروت لكنه غادرها بعد سنة، ثم عاد إليها عام 1834م، وتوفى ببيروت سنة 1857. ينظر:على معطي، المرجع السابق، ص22.

[4]- عبد الرازق عيسى، المرجع السابق، ص79.

[5]- نفسه، ص79.

[6]- أحمد سعد الدين البساطي، التبشير وأثره في البلاد العربية والإسلامية، دار أبو المجد، مصر، 1989، ص142.

[7]- عبد الرازق عيسى، المرجع السابق، ص80.

والاحتماء بالامتيازات والقناصل الانجليز والأمريكان، وكان نشاطهم على حساب الطوائف المسيحية الأخرى والدروز أكثر من المسلمين الذين كان العمل بينهم صعباً[1].

د-محطة عبية: منذ نهاية عام 1839م عمل المبشرون على توسيع نشاطهم خاصة بين الدروز فاختاروا منطقة عبيّة التي تضم خليطا بين الموارنة والدروز والروم والأرثوذكس لكن الصراع بين الموارنة والدروز أجّل ذلك مؤقتاً[2].

ومنذ عام 1843م ذهب إليها "كرنيلوس فانديك" [3] و"وليم طمسن" و"هوايتن"، واشترت الإرسالية قطعة من الأرض وأقاموا عليها كنيسة عبية، وقسيسها "فانديك"، وساهموا في جمع الأنصار فكثر عدد الحاضرين لخطبهم [4]، وأنشأت مدرسة للبنات في المنطقة سنة 1847م تحت إشراف السيد دي فورست وزوجته، ومدرسة أخرى أيضا سنة 1859م[5] لتلعب محطة عبية دورها الكبير في خدمة الحركة التبشيرية في جبل لبنان[6].

هـ-محطة صيدا: بعدما اطمأن المبشرون للعمل التبشيري عينوا عام 1851م "وليم طمسن" و"فانديك" للتبشير في صيدا وضواحيها في سنة 1854م، وبعدها ظل العمل التبشيري هناك يسير بانتظام ونتج عن جهودهم إقامة كنيسة في حصابيا سنة 1851، وصيدا 1855 وباشروا بتقديم الدروس والمواعظ وبذلك بدأت الإرساليا ت البروتستانتية الأمريكية تترك عملها رويدا رويدا للمواطنين الشوام الذين تعلموا على أيديهم كيفية العمل التبشيري[7].

و-محطة سوريا: إن نسبة البروتستانت في سوريا ضئيلة، ولعل ذلك راجع لكثرة المسلمين بها بالإضافة إلى وصول التبشير البروتستانتي لها في وقت متأخر، ولكن رغم ذلك إلا أن نشاطهم كان قوي جدّا بها، وقد اهتم هؤلاء المبشّرون بإنشاء الكنائس في المنطقة منها:

---

[1]- نفسه، ص 81، 82.
[2]- نفسه، ص87.
[3]- فانديك كرنيلوس:(1818-1895م)، ولد بنيويورك من والد ين هولنديا الأصل تعلم عدّة لغات وكان منذ صغره مهتما بمختلف العلوم، ودر س الطب على يد والده ثم أدخل مدرسة فلاديلفيا حيث تخرّج طبيبا من هناك، كما اختاره مجمّع المرسلين الأمريكان مرسلا وطبيبا إلى بيروت وعمره 21 سنة وتعلم العربية وأتقنها وكان له دور بارز هناك. ينظر: جورجي زيدان، المصدر السابق، ص ص 52، 55.
[4]- عبد الرازق عيسى، المرجع السابق، ص87.
[5]- عبد الرحمان الشهري، المرجع السابق، ص27.
[6]- عبد الرازق عيسى، المرجع السابق، ص90.
[7]- نفسه، ص92.

كنيسة "الأرمن الإنجيلية" وفيها 750عضو، وكنيسة "الإتحاد النصراني" و"المبشّر" التي تأسّست سنة1890م[1].

ي-محطة فلسطين: لفلسطين مكانة خاصة في الفكر الديني المسيحي عموما والبروتستانت خصوصا لإيمانهم بعودة المسيح عليه السلام لها[2].

- الإرسالية البروتستانتية الأمريكية في فلسطين: تأسست في الولايات المتحدة عام 1810م أقدم جمعية أمريكية إرسالية، وهي جمعية المجلس الأمريكي الإرسالية الخارجية وعرفت باسم "الأمريكان بورد"، وما لبثت أن لفتت انتباهها فلسطين فأوفدت مرسلين للعمل بها عام1819م وهما: "بليني فسك" وليفي بارسنز"، ثم وصل المبشر "جويت" إلى القدس الذي يعتبر بداية العمل التبشيري بها بمقدمه[3].

وقد توافد الكثير من المبشرين البروتستانت منهم طمسون وزوجته مع نيكولايسن قرّروا سنة1834م إقامة مركز تبشيري بروتستانتي في القدس[4].

لقد عملت الإرساليات الأمريكية بالقدس على نشر دعوتها في البلاد العربية من القدس وذلك بذهاب المبشرين إليها ونشر الكتب التي يطبعونها في بيروت مثلما حدث في الرملة وغزة، حتى وصل تبشيرهم إلى جبال نابلس، وفي إطار التنسيق بين الإرساليات البروتستانتية للعمل في القدس فقد حقق الأمريكيون أكثر مصالح من الإنجليز والألمان واستطاعت أمريكا تأسيس قنصلية لها في القدس، واهتموا بالنواحي الجغرافية والأثرية وكل ما من شأنه العمل على تثبيت المذهب البروتستانتي في فلسطين، وتهيئة الأذهان لعودة اليهود إلى فلسطين وذلك اعتقادا منهم على ما تنص عليه التوراة[5].

الإرساليات البروتستانتية البريطانية: كانت المعاهدة السريعة بين الدولة العثمانية وبريطانيا عام 1799م ضد فرنسا هي المنطلق الجديد للمصالح البريطانية في فلسطين وتم تعيين قنصل سياسي لبريطانيا في القدس عام 1838م، تلاه إقامة أسقفية لبريطانيا في القدس أيضا، وبدأت القنصلية والأسقفية تنشطان نشاطهما السياسي والديني في المنطقة وذلك منذ

---

[1]- عبد الرحمان الشهري، المرجع السابق، ص45، 46.
[2]- عبد الرازق عيسى، المرجع السابق، ص82.
[3]- أمل عاطف محمد الخضري ، التنصير في فلسطين في العصر الحديث، (رسالة ماجستير في العقيدة الإسلامية)، إشراف سعد عبد الله عاشور، الجامعة الإسلامية، غزة، 2004، ص81.
[4]- عبد الرازق عيسى، المرجع السابق، ص83.
[5]- نفسه، ص86.

منتصف القرن 19م بإقامة المؤسسات والمدارس، وبالتالي تكونت طائفة بروتستانتية في فلسطين، عملت على شراء الأراضي، وبنت بها أول كنيسة في فلسطين في سنة 1845م، وبترخيص من الدولة العثمانية أصدرت قرار سلطاني يسمح بذلك [1] ومن بين الإرساليات البريطانية التي وفدت إلى المنطقة نجد:

- جمعية لندن لنشر المسيحية بين اليهود (LJS): وهي أول إرسالية استهدفت القدس تأسست في لندن سنة 1809م، لكنها جاءت لتنصير اليهود، كذلك جمعية المرسلين الكنسية (CMS) التي اعتبرت تنصير غير النصارى مبدءا لها، وفي عام 1850م قررت فتح مركزها في القدس وأعلنت على أن مركز العمل الإرسالي في الشرق الأوسط سيكون في القدس[2]، وفي سنة 1878م جاءت إرسالية إلى غزة وعلى رأسها المستر ريتشارد وتمكن من نشر المذهب البروتستانتي وإقامة مدارس للإناث والذكور بها[3].

2- الإرساليات الكاثوليكية: انشغلت فرنسا عن دعمها للحركة التبشيرية في النصف الثاني من القرن 18م وذلك بسبب أحداث ثورتها العارمة، لكن سرعان ما عادت الإرسالية الكاثوليكية لمزاولة نشاطها التبشيري في بلاد الشام مع بدايات النصف الأول من القرن 19م وذلك راجع بالدرجة الأولى لسياسة إبراهيم باشا في الشام، ومنحها الحق في مزاولة نشاطها بكل حرية وبناء كنائسها وتأسيس مدارسها كما شاءت لتدخل الإرسالية الكاثوليكية ميدان التنافس من جديد بينها وبين المذاهب المسيحية الأخرى خاصة البروتستانتية منها [4]، إذ سرعان ما أخذ الكاثوليك في فتح كليتهم الخاصة في عين طورة التي خرّجت عددا كبيرا من الكتّاب والمفكرين، والذين ساهموا في نشر الثقافة العربية ودعوا إلى الاهتمام بالتراث العربي[5].

لقد كثفت البعثات التبشيرية من نشاطها فأنشؤا المدارس في بيروت وزحلة ثم في دمشق وحلب، وأنشؤوا جامعة "القدّيس يوسف" في بيروت، كما عمل اليسوعيون كذلك على تأسيس مطبعة لهم في سنة 1847م، بالإضافة إلى دور اللعزاريين وغيرهم وإن كانت

[1]- أمل عاطف محمد الخضري، المرجع السابق، ص76.
[2]- أمل عاطف محمد الخضري، المرجع السابق، ص77.
[3]- نفسه، ص78.
[4]- جميلة معاشي، المرجع السابق، ص29.
[5]- جلال يحي، المرجع السابق، ص187.

مجهوداتهم ضعيفة[1]، وقد كانت فرنسا تدعم الكاثوليك ماديا وتقف إلى جانبهم معنويا ولعل من بين الوصايا التي كانت تزودهم بها وتجبرهم على حفظها وتطبيقها إذ يفهم من هذا أن الهدف من التبشير ذلك الوازع الديني بقدر ما هو سياسي فكانت بعض الوصايا متمثلة في[2]:

1. لقد رتبنا لكم أهم الأشياء التي تضمن لكم معيشة حسنة في هذه المنطقة مثل تمليك الأراضي والوكالات الأجنبية والأنظمة السياسية وشؤون النقد، ويبقى عليكم أن تحافظوا على ذلك.
2. ركزوا على الجانب الثقافي من نشر الكتب والسيطرة على النقابات والاتحادات.
3. عليكم أن تتحدوا مع بعضكم أبناء يسوع ولا تتفرقوا، وادرسوا دائما مخططات الآخرين.

أمّا عن نشاط هؤلاء المبشرين في مختلف ولايات الشام فتشير بعض المراجع بأن في لبنان مثلا هناك إحصائيات لبعض الكنائس التي كانت في المنطقة التابعة للمذهب الكاثوليكي[3]، ومن بينها: الكنيسة الأرمينية وعدد أعضاءها 100.000عضو، كذلك الكنيسة المارونية وعدد أعضاءها 400.000 عضو والكنيسة الرومية وعدد أعضاءها 27.000 عضو[4].

أمّا عن الإرساليات الكاثوليكية في فلسطين جاءت عندما تأسست القنصلية الفرنسية في القدس عام 1843م وتركز عملها على إنشاء المؤسسات والمستشفيات والمدارس، وفي عام 1880 شهدت فلسطين تطورا كبيرا في النشاط التبشيري الكاثوليكي وكان مركزه في القدس وبيت لحم والناصرة وحيفا والرملة ويافا، وقد زاد عدد المؤسسات التبشيرية بتعدد الإرساليات الكاثوليكية خاصة في النصف الثاني من القرن 19م ومن بينها نذكر[5]:

إرسالية أخوة المدارس المسيحية تأسست في فرنسا عام1680م برئاسة "جان بابتست دولاسال" وفي عام 1876م أسس أتباعها ديرا في القدس ثم عرف فيما بعد باسم مدارس ألفرير "Frere" ليكون بذلك مركزا إرساليا في فلسطين.

---

[1]- نفسه، ص189.
[2]- عبد الرحمان الشهري، المرجع السابق، ص23.
[3]- عبد الرحمان الشهري، المرجع السابق، ص25.
[4]- نفسه، ص25.
[5]- أمل عاطف، المرجع السابق، ص89 ،90.

كذلك إرساليات راهبات الكرمل أو الكرماليات، تأسست عام 1563 على يد القديسة "تريزا" في فرنسا وقدمت إلى فلسطين سنة 1873م، وللإرسالية أديرة في بيت لحم والناصرة وحيفا، وكذلك إرسالية راهبات مار يوسف قدمت إلى فلسطين عام 1848م وهي إرسالية تشرف على المؤسسات التعليمية والصحية في فلسطين[1].

أمّا عن النشاط الكاثوليكي في سوريا فقد كان مقبولا رغم قوة الإسلام بها، فكانت هناك كنائس كاثوليكية منتشرة بها ومن أهمها كنيسة الأرمن الكاثوليكية وبها 22000 عضو، الكنيسة المارونية الكاثوليكية وبها 19.000 عضو[2]، كما دخلت الإرسالية اليسوعية الثانية دمشق في 1827م وحلب في 1873م وحمص 1882م[3].

3- الإرساليات الأرثوذكسية

اقتداءا بالسياسة الفرنسية الحامية للكاثوليك، تحاول روسيا هي أيضا الحصول على الإعتراف بحق حماية الأرثوذكس في الإمبراطورية العثمانية، وعلاوة على ذلك كانت روسيا متزايدة المطالب بشأن مسألة الأماكن المقدسة في فلسطين وعلى مدار قرون.

كان الباب العالي قد عهد بإدارة هاته الأماكن لأهم كنيسة مسيحية في الدولة والتي كان خضوعها مكفولا لكن التحالف مع فرنسا قد قاد إلى منح امتيازات متنامية للفرنسيين الممثلين للكثوليك.

واعتبارا من زمن عودة الملكية انهمكت فرنسا وروسيا في مباراة سواعد حديدية حقيقية رهاناتها الحقوق الخاصة لكل من الكنيسة، وما كان على الباب العالي إلا أن يتجاوب مع ضغوط كل من الطرفين لمنح حق الحماية الدينية للدولتين على مسيحيي الإمبراطورية[4].

استطاعت روسيا فرض نفوذها على الطائفة الأرثوذكسية سنة 1840م وقد حصرت نشاطها التبشيري في فلسطين دون غيرها من المناطق [5]، فبعث بإرساليتين، الأولى امتدت من سنة 1847 إلى 1854م برئاسة "الأشمندريت بروفيوس أوسبنسكي" وبدأت مهمتها بتفحص الوضع القائم في فلسطين ومساعدة العرب الأثوذكس بإقامة مركز تبشيري لروسيا

[1]- عبد الرحمان الشهري، المرجع السابق، ص44.
[2]- نفسه، ص44.
[3] -Rafaél Herzstien, op.cit, p1.
[4]- هنري لورانس، المرجع السابق، ص170، 171.
[5]- جميلة معاشي، المرجع السابق، ص32.

في الأراضي المقدسة، وانصب اهتمام أوسبنسكي على تحسين الأحوال التعليمية لطائفة الأرثوذكس في فلسطين التي امتازت بالضعف.

وشجعت هاته الإرساليات على فتح المدارس في القرى والمدن وحاولت مقاومة النشاط الكاثوليكي البروتستانتي، لكن دور هاته الإرسالية الأرثوذكسية انتهى في سنة 1854م مع نشوب حرب القرم 1853-1856م عندما طردت الدولة العثمانية "أوسبنسكي" من البلاد، ولكن لما عادت العلاقات العثمانية الروسية وصلت القدس إرسالية ثانية سنة 1857م برئاسة "كيرلس ناخوموف" وقد كان لهاته الإرسالية دور كبير في الاهتمام بالتعليم والمدارس والحفاظ على حقوق الرعايا الأرثوذكس[1].

المبحث الثالث: الدور الثقافي والاجتماعي للإرساليات التبشيرية

[1]- أحمد حامد القضاة، المرجع السابق، ص ص247، 249.

كان للإرساليات التبشيرية دور لا يستهان به في تفعيل الحياة الفكرية والثقافية في البلاد العربية مستغلة تراجع قوة الدولة العثمانية، وإهمالها للجانب الثقافي بسبب الصراعات التي أنهكت كاهلها، أضف إلى ذلك سياسة الحكم المصري في بلاد الشام التي أمدت يد العون لهذه الإرساليات ويسَّرت عملها، فعلمت هذه البعثات أهمية الجانب الثقافي فاهتمت بالتعليم والطباعة والصحافة لتحقيق أهدافها[1].

وللمدرسة أهمية كبيرة في ذلك بحيث يقول أحد المبشرين "إنّ الدور الذي تلعبه الإرساليات المسيحية هو السيطرة على آليات التعليم لقيادة الناس إلى المسيح وتعليمهم حتى يصبحوا أفرادا مسيحيين، وإن المدرسة شرط أساسي لنجاح التبشير، وأن المدرسة قوة لجعل الناشئة تحت تأثير التعليم المسيحي أكثر من كل قوة أخرى، ثم أن هذا التأثير يستمر حتى يشمل أولئك الذين سيصبحون يوما قادة أوطانهم..."[2].

وقد اختلفت هذه المدارس والمعاهد باختلاف المذاهب المسيحية التي وفدت إلى بلاد الشام ونشطت في القرن 19م، وقد كان من خططهم اختيار الأسماء البراقة مثل: مدرسة السلام، مدرسة المحبَّة، مدرسة المُخلص والتقارب، الراعي الصالح، دار الطفل... وغيرها وهذا من أجل التظليل[3].

ويمكننا استعراض عيّنة من المدارس الأجنبية التبشيرية في بلاد الشام التي لعبت الدور الكبير في النهضة العربية الثقافية:

أ-المعاهد الكاثوليكية: تعتبر الإرساليات التبشيرية اللاتينية الكاثوليكية من أقدم الإرساليات نشاطا في ميدان التعليم، ففي القدس مثلا أنشأت مدرسة "ماريوسف" للبنات عام 1848[4] ومدرسة السيدة "حنة تريزا" للبنات أيضا سنة 1870، ومدرسة "دير الفرنسيسكان" 1878م وكذلك الكلية اليسوعية، فكان لفرنسا وحدها حوالي 500 مدرسة موزّعة على كامل بلاد الشام[5].

---

[1]- مفيدة محمد، المرجع السابق، ص102، 103.
[2]- نفسه، ص104.
[3]- بكر عبد الله أبو بكر زيد، المدارس العالمية الأجنبية الاستعمارية تاريخها ومخاطرها ، ط1، دار ألفا، القاهرة، 2006، ص21.
[4]- علي المحافظة، المرجع السابق، ص37، 38.
[5]- جميلة معاشي، المرجع السابق، ص59.

ب- المعاهد البروتستانتية: استطاعت هذه الإرساليات أن تأسس في الفترة ما بين 1834-1860 أكثر من 33 مدرسة ابتدائية وثانوية في بلاد الشام، وأسسوا سنة 1866 الكلية السورية الإنجيلية التي صارت تعرف بالجامعة الأمريكية وقد كان لها دور كبير في خدمة اللغة العربية والثقافة[1].

ويشيد جورج أنطونيوس بدورها في هذا السياق فيقول:" كان لجهود الأمريكيين الفضل الأكبر فيما تميزت به الحركات الأولى للنهضة العربية جَيشان فكري"[2].

وقد كان البروتستانت وعلى رأسهم الأمريكيون مصِرُّون على أن تكون الدراسة باللغة العربية، وذلك من أجل تنمية الشعور القومي العربي وإضعاف رابطتهم بالدولة العثمانية[3].

ج- المعاهد الأرثوذكسية: مع توسع الإرساليات في إنشاء المدارس سعت الكنيسة الأرثوذكسية إلى إصلاح التعليم في مدارسها وجذب المتعلمين لإدارتها وعملت حكومة روسيا القيصرية في منطقة فلسطين في منتصف القرن 19م -خاصة مع تحويل البروتستانت الأقليات الأرثوذكسية إلى مذهبهم- على إنشاء مدارس خاصة بهم لبسط نفوذهم سنة 1882م، وفي سنة 1884 فتحوا مدرسة البنات في الناصرة، وكذلك مدرسة بيت جالا، ومدرسة بيت ساحورَا...الخ[4].

وقد قامت بدور مقبول رغم الظروف الصعبة التي مرت بها الطائفة الأرثوذكسية بالدولة العثمانية من اضطهاد من طرف اليونان، إذ يؤكد "خيتروفو" وهو أول مدير للجمعية الروسية إلى الاستنجاد وطلب الحماية من القيصر الروسي سنة 1872م[5]، والشيء والشيء الملاحظ هو الاهتمام البليغ للمبشرين بجنس الإناث وإخراجهن من البيوت للدراسة[6] ، وعملوا على إنشاء دور خاصة لإيواء البنات وذلك مما يزيد من تأثرهن بأعمال

---

[1]- الغالي غربي، المرجع السابق، ص218.
[2]- جورج أنطونيوس، المصدر السابق، ص105.
[3]- عيسى عبد الرازق، المرجع السابق، ص132.
[4]- أحمد حامد إبراهيم القضاة، المرجع السابق، ص252،253.
[5]- رؤوف سعد أبو جابر، الوجود المسيحي في القدس خلال القرن 19 و20، ط2، بيروت، 2010، ص80،81.
[6]- محمود عبد الرحمان، التنصير والاستغلال السياسي، ط1، دار النفائس، لبنان، 2009م، ص107.

التبشير الممارسة عليهن[1] ، وحَاولوا بكل الوسائل إبعادهن عن عاداتهن ولغتهن وتقاليدهن وتكييفهن مع عادات جديدة حتى يستطعن التأثير في مجتمعاتهن[2].

وقد تعرضت هذه المدارس لنقد طلابها المتمسكين باللغة العربية، حيث أن هذه المدارس ما إن استقر بها الحال حتى تخلصت من استعمال العربية، وادَّعت أنها لغة تخلف لا يمكنها مواكبة التطوّر، هذا إضافة إلى زيادة النفوذ الأجنبي في بلاد الشام جعل بعض الوطنيين يتفطنون لخطر هذه المدارس على لغتهم ودينهم ويعملون على خلق تعليم وطني يراعي مصلحة البلاد وأهلها[3].

- إنشاء المطابع:

إنّ الطباعة في بلاد الشام قد ازدهرت مع نقل الإرساليات البروتستانتية مطبعتهم من مالطة إلى بيروت سنة 1834م، وذلك لتسهيل مهمتها التبشيرية وبها بدؤوا طبع الكتب العلمية والطبية والرياضية والمدرسية التي كان يؤلفها أو يترجمها أستاذه الكلية الأمريكية فكانت بذلك أنشط مطابع المنطقة فقد طبعت في سنة 1881م وحدها 57500 مجلدًا وبيع منها الكثير من الكتب[4].

ومنافسة لهذه المطبعة أنشأ الآباء اليسوعيون المطبعة الكاثوليكية سنة 1848 وكانت تطبع الكتب الدينية والأدبية، ومنذ النصف الثاني من القرن 19م انتشرت المطابع في بلاد الشام بكثرة[5].

كما أنشأت الإرسالية الأرثوذكسية مطبعة بالقدس عام 1849 وتولى إدارتها "يوحنا لازاريدس"، وبلغ مجموع ما طبعته من الكتب العربية حتى عام 1883 (62 كتابا)[6] وما إن لاحظ العرب في بلاد الشام مدى فائدة الطباعة ومدى تمكن الإرساليات من نشر أفكارهم من خلالها، حتى قلّدوهم في اقتنائها والعمل بها لنشر الوعي بين الوطنيين، وهكذا لم تمر

[1]- أحمد عبد الوهاب، حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر، مكتبة وهبة ، مصر، ص166.
[2]- عبد الرحمان حسن حنبكة: أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها (التبشير، الاستشراق، الاستعمار)، ط8، دار القلم، دمشق، 2000، ص 80.
[3]- جميلة معاشي، المرجع السابق، ص60، 61.
[4]- نفسه، ص69. (أنظر الملحق (08) ص82).
[5]- محمد أسعد طلس، المرجع السابق، ص104.
[6]- علي المحافظة، المرجع السابق، ص58.

3 سنوات على إنشاء المطبعة اليسوعية حتى ظهرت المطبعة السورية "لخليل الخوري" سنة 1857، ثم مطبعة المعارف "للبستاني" سنة1867م التي نشر فيها القاموس المحيط[1].

انتشار الصحف والصحافة

كانت الصحف القليلة المتواجدة في العالم العربي قبل انتشار الصحافة الحرَّة هي صحف رسمية حكومية تسير في خط الدولة العثمانية بعيدا عن الانتماءات المختلفة، فلم يعرف العرب الصحافة الحرّة قبل اتصالهم بالأوربيين في القرن19م[2]، وكانت أول صحيفة في سوريا للمبشّرين الأمريكيين صحيفة "مجموع الفوائد" وهي مجلة عربية اللغة، استمر صدورها حتى عام1855م[3].

وأنشأ اليسوعيون مجلة دينية، نشرها الآباء اليسوعيون في 1870 بإدارة "فرنسيس غوترلت" ويساعده "يوحنا بلو" وهي مجلة "المجمع الفاتيكاني" [4]، كما أسّس الكاثوليك صحيفة "البشير" وهي دينية إخبارية أنشأها الأب "أمبروسيوس مونو" عام 1870 والكثير من الصحف[5].

أمّا عن الصحافة الوطنية فقد كانت أول جريدة لبنانية "حديقة الأخبار" لخليل الخوري، جريدة سوريا، ونفير سوريا، جريدة الجنة والجنان.

ويقول شكيب أرسلان عن أهمية الصحافة "لا نزاع في أن الصحافة العربية قد كانت من أقوى العوامل في هذه النهضة، بما أثارت من حركة فكرية، ونقلت من أخبار الغرب الناهض إلى أهل الشرق النائم..."[6].

دورها في الجانب الاجتماعي:

استطاعت الإرساليات التبشيرية استغلال الوضع الاجتماعي، وأن تلعب الدور الفعال في تثبيت فكرتها التبشيرية وتحقيق مصالحها المذهبية والاستعمارية متذرعة بوقوفها في

---

[1]- جميلة معاشي، المرجع السابق، ص69، 70.
[2]- محمد أسعد طلس، المرجع السابق، ص102.
[3]- محمد أحمد، المرجع السابق، ص318.
[4]- فيليب دي طرازي، المرجع السابق، ص44.
[5]- نفسه، ص11
[6]- جميلة معاشي، المرجع السابق، ص75.

كثير من المواقف وخاصة الحروب والكوارث وتقديم الخدمات الاجتماعية والمساعدات الإنسانية وإنشاء المستشفيات والمستوصفان التبشيرية، وقد تحملوا المشقات في سبيل تنصير المسلمين[1] ، ويحاول الطبيب المبشّر أن يظهر أمام المريض كأنه "ملاكٌ للرحمة" ويحاول استخدام المرضى واسطة لنقل أفكار المبشّرين إلى أهله والتأثير فيهم ولكي يواصل مهمة المبشرين[2].

واستغلت الإرساليات الوضع المتدهور وعملت على بناء مراكز ودور للأيتام والعجزة والأرامل وإحياء المناسبات الاجتماعية وتبادل الزيارات والهدايا، وإدخال عادات غربية على المجتمع الإسلامي، وجمع المتشرّدين في الحروب والأزمات وإيوائِهم[3].

[1]- عمر فروخ ومصطفى خالدي، المرجع السابق، ص105.
[2]- محمود عبد الرحمان، المرجع السابق، ص161.
[3]- عمر فروخ ومصطفى خالدي، المرجع السابق، ص106.

المبحث الأول: الإرساليات وبروز النخب المثقفة

لقد لاحظنا بعد استعراضنا لأهم الإرساليات التبشيري ة التي وصلت بلاد الشام في القرن 19م، وأبرز نتائجها وتأثيراتها على المنطقة أن الحركة القومية العربية لم تظهر كحركة لها أهميتها وأهدافها السياسية إلا في أواخر القرن 19م[1]، والقومية نقصد بها تلك الصّلة الاجتماعية العاطفية التي تتولد من الاشتراك في الوطن والجنس واللغة والثقافة والتاريخ والحضارة والآمال والمصالح[2]، فلقد اندمجت الأنشطة السياسية للعرب الخاضعين للعثمانيين في الحركات العامة للإمبراطورية أي في الصراع العلني والسري الذي شغل كل عصر السلطان عبد الحميد الثاني، وكان الحكم العثماني في نظر أغلبهم استمرار للتاريخ الإسلامي، ولكن لا يعني أن اليقظة العربية أو النهضة الفكرية العربية ظلت جامدة طوال تلك الفترة -تماما- فقد ساعدت بعض المؤثرات الأجنبية على نمو اليقظة التي تعتبر بداية للوعي بالكيان العربي الذي برزت أبعاده السياسية الحقيقية في مطلع القرن20م[3].

وكانت الحملة الفرنسية على مصر في عام 1798م بداية لهذا التطور الجديد لأنها أيقظت العرب على واقعهم ودفعتهم إلى المقارنة بين أنفسهم وما وصل إليه الغربيون من تطوّر في مختلف المجالات كما كان للطباعة التي أتت بها البعثة المرافقة للحملة أثرا كبيرا في بداية إحياء التراث العربي في مصر وسوريا [4]، كما لعبت الإرسالية الأمريكية الدور البارز، كما أسلفنا الذكر، في مجال الثقافة خاصة بعد تأسيس مطبعة عربية حديثة في لبنان عام1834م، وفتح المدارس وإفساح المجال للمؤثرات الغربية في هذه المناطق[5]، مما سمح للكثير من الشخصيات الوطنية وخاصة المسيحية بتزعّم هذه اليقظة في بلاد الشام[6].

وقد رأينا أن نأخذ بعض نماذج من هذه الشخصيات:

1/ فارس الشدياق (1804-1887م): درس فارس في مدرسة عين ورقة ثم التحق بخدمة المرسلين الأمريكان، فكان يقف على مطبوعات المطبعة الأمريكية ومنشوراتها عندما كانت

---

[1]- عمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي، ص416.
[2]- عدنان محمد زرزور، جذور الفكر القومي والعلماني، ط3، المكتب الإسلامي، لبنان، 1999، ص43.
[3]- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص416
[4]- إميل البستاني، زحف العروبة، تر: عبد اللطيف شرارة، ط1، دار الكتاب اللبناني، 1961، ص32، 33.
[5]- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص417.
[6]- فليب حتي، المرجع السابق، ص551.

لا تزال في مالطة، وكان شاعرا وقد نظم قصيدة مدح بها باي تونس فلاقت عنده الاستحسان الشديد، فأرسل يستدعيه ليكون في خدمته وأرسل الباي سفينته الخاصة تقله وفي تونس اعتنق الإسلام وأضاف إلى اسمه "أحمد" فصار أحمد فارس الشدياق [1]، وله كتاب مشهور اسمه "الساق على الساق فيما هو الفارياق" الذي عمل فيه على إثبات تفوّق اللغة العربية التي كان يهتم بها أكثر من أي شيء آخر[2].

وفي سنة 1860م أصدر في استانبول جريدة عربية اسمها "الجوائب" وهي من أقدم الصحف العربية، ويقال بأنه هو أول من أطلق لفظة "جريدة" على الصحيفة اليومية [3] وقد استمدّت جريدة "الجوائب" أهميتها من كونها هي أول صحيفة تعنى بشرح أحداث السياسة العالمية وحلّل فيها الشدياق بتفصيل مسار الحرب البروسية الفرنسية والمسألة الشرقية في السبعينات، كما نشر ترجمات لوثائق دبلوماسية مهمّة، وقارن بين الحياة الأوروبية والشرقية، مفضّلا الأولى على الثانية، ذلك لأن الأوروبيين كانوا على حد قوله منظمين ومنتجين ومجتهدين، تجمعهم وحدة اجتماعية تعلوا على الفوارق في المعتقدات وتشترك نساؤهم اشتراكا تاما في حياة المجتمع، ولا يُعاني أبناؤهم الإهمال مثل الأولاد في المشرق، وهذا ما دفع بالسلطان العثماني على الاستعانة به للدفاع خارج وداخل الإمبراطورية عن سياسته وحقه في الخلافة[4].

2/ ناصيف اليازجي: "يازجي" كلمة تركية معناها "كاتب" دُعي بها أحد أجداد ناصيف، إذ كان يكتب عند أحد عمّال الأتراك في أواسط القرن 18م، والأسرة أصلها من روم حمص، كثرت فروعها في تلك المدينة حتى أواخر القرن 17م، فهاجر منها سعد وهو جَدُ جَدِّ ناصيف مع جماعة من أهله إلى لبنان، فسكن بعضهم في ناحية الغرب الأقصى من ساحل لبنان وسار الآخرون إلى وادي التيم، وكان كاتب العامل التركي من الفرع المهاجر فلصق لقب اليازجي بذريته التي تركت المذهب الأرثوذكسي وجاهرت بالكاثوليكي في القرن 18م[5]، أمّا عن ناصيف فهو ابن عبد الله بن ناصيف بن جنبلاط بن سعد اليازجي [1] ولد في

---

[1]- فليب حتي، المرجع السابق، ص554.
[2]- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص420.
[3]- فليب حتي، المرجع السابق، ص554.
[4]- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص420.
[5]- فؤاد أفرام البستاني، الشيخ ناصيف اليازجي" منتخبات شعرية"، ط4، دار المشرق، لبنان، 1986، ص11، 12.

قرية كفر شيما من قرى ساحل لبنان في 1800/03/25م، وكانت وسائل التعليم إذ ذاك محصورة في جماعة الأكليروس، فتلقى القراءة البسيطة على يد القس "متّى" من قرية بيت شباب، وكان والده من الأطباء المشهورين في وقته، وكان مع ذلك أديبا شاعرا فأنشأ ولده على الميل إلى الأدب والشعر، وأقبل على المطالعة حتى أنه نظم الشعر وهو في العاشرة من عمره[٢].

عمل منذ السادسة عشر من عمره سكرتير البطريرك الكاثوليك وبقي في خدمته مدة سنتين أو ثلاث واستقل بعد ذلك عنه وتابع تحصيله العلمي، وفي نهاية العقد الثالث من عمره شغل منصبا في ديوان الأمير بشير الشهابي الثاني حاكم جبل لبنان وبقي فيه حتى عام 1840م حين نفي بشير بعد انسحاب إبراهيم باشا من بلاد الشام، وكانت شهرته قد ذاعت كشاعر صافي الأسلوب جديد التعبير [٣]، والتجأ إليه المبشرون الأمريكيون لإصدار كتب في علوم اللغة العربية، فقد كان أكثر معاصريه قدرة على ذلك واستعدادا له وكانت الغاية من الكتب التي ألفها في النحو والمنطق والبلاغة والعروض، أن تستعمل في المدارس ولا سيما في مدارس الإرسالية الأمريكية، ولكن مجال استعمالها اتسع وانتشرت بين المدرّسين والطلاب وظلت زمنا طويلا بعد وفاته توجّه تدريس اللغة العربية[٤].

ومن الكتب التي شهرته وخلدت اسمه كتاب "فصل الخطاب في أصول لغة الإعراب" الذي صدر أولا في مالطة 1836 م ثم أعيد طبعه مرارا، وكتاب "مجمع البحرين" الذي صدر أولا في بيروت 1856م وشرح ديوان المتنبي وقد قام بإكماله ابنه [٥] إبراهيم[٦]، ولم يقتصر أثر ناصيف اليازجي على انتشار كتبه المطبوعة، فقد أصبح بيته مقصدا لجمهور من المريدين يتزايد باستمرار، وكانوا يتحلقون حوله ويستمعون إليه وهو يحدثهم عن

---

[١]- خليل مروم بك، أعيان القرن الثالث عشر في الفكر والسياسة والاجتماع، ط 1، لجنة التراث العربي، لبنان، 1971، ص235.

[٢]- جورجي زيدان، المصدر السابق، ص17.

[٣]- منير مشابك موسى، الفكر العربي في العصر الحديث، سوريا من القرن 19م حتى العام 1918م، دار الحقيقة، لبنان، 1973، ص189.

[٤]- جورج أنطونيوس، المصدر السابق، ص11.

[٥]- إبراهيم اليازجي: ولد في مارس 1847م في بيروت ونشأ فيها وتلقى مبادئ العلم على يد أبيه ناصيف خاصة أصول اللغة وقواعدها، ونظم الشعر منذ صباه ثم تركه وتفرّغ للدراسة والمطالعة، فدرس الفقه الحنفي على يد الشيخ محي الدين اليافي ببيروت ودخل عالم الصحافة بتحريره لجريدة النجاح 1872م كما استعان به المرسلون الأمريكان لترجمة التوراة، وكان له دور في تحريك الشعور القومي العربي ضدّ الأتراك وتوفي عام 1906م. ينظر: جورجي زيدان، المصدر السابق، ص144، 145.

[٦]- فليب حتي، المرجع السابق، ص563.

مواطن الجمال في اللغة العربية، وكانت هي اللغة الوحيدة التي يعرفها، ومات دون أن يتعلم غيرها، وكان يدعوا دائما إلى إحياء الأدب القديم [1]، ويدعوا الجميع مسحيين ومسلمين إلى ترك التعصّب الديني والعودة إلى تراثهم العربي المشترك ليشيّدوا على أسسه مستقبلا يجمعهم، متآلفين ونشأ أولاده الإثني عشر بنينا وبنات على هذه الآراء وكان منهم ابنه إبراهيم الذي لعب دورا هاما في الدعوة إلى العروبة والوطنية والتحرر من الأتراك[2].

وفي عام1869 أصيب بمرض عضال، فانفلج فالجا نصفيا عطل شطره الأيسر فلزم داره ولكنه ما برح ينظم الشعر ويتلقى السائلين، ولكن ما زاده كربا وفاة ابنه حبيب فرثاه بقصيدة وحزن حزنا شديدا عليه حتى أصابته جلطة دماغية فمات في8 فيفري1871م[3].

3/ بطرس البستاني: هو بطرس بن بولس بن عبد الله البستاني ولد في قرية الدبية في جبل لبنان عام1819م، وهو ينتمي إلى أسرة ريفية مارونية تخصّصت في الزراعة فحملت لقب البستاني، بدأ يتلقى العلم منذ صغره في قريته على يد رجال الكنيسة فتعلم العربية والسريانية وبعض المبادئ الدينية المسيحية، ونظرا لما امتاز به بطرس من ذكاء بعثه مطران صيدا وصور عبد الله البستاني إلى مدرسة "عين ورقة" التي أمضى فيها 10 سنوات (1830-1840م) أتقن خلالها اللغة العربية والمنطق والتاريخ والحساب وعددا من اللغات كالإيطالية واللاتينية إضافة إلى اللاهوت ومبادئ القانون [4]، ولما تخرّج من هذه المدرسة أراد بطريرك الطائفة المارونية إرساله إلى روما للتبحّر في العلوم الدينية غير أن والدته منعته ليبقى معها بعد وفاة والده، فعيّن مدرسا في مدرسة عين ورقة عام 1840م[5]، لكنه لم يستمر طويلا فغادرها إلى بيروت ليعمل مترجما لدى كل من البعثة الإنكليزية التي دخلت لبنان لمساعدة الدولة العثمانية على طرد إبراهيم باشا، واعتنق المذهب الإنجيلي (البروتستانتي) بعد أن كان كاثوليكيا[6].

وفي سنة 1846م ساعد "فان ديك" في إنشاء مدرسة "عبيّة" وقام بتدريس اللغة العربية بها وأخذ يؤلف الكتب لتستعمل في المدارس التبشيرية الأمريكية، وحين طلب إليه

---

[1]- جورج أنطونيوس، المصدر السابق، ص111.
[2]- منير مشابك، موسى، المرجع السابق، ص189، 190.
[3]- جورجي زيدان، المصدر السابق، ص21، 22.
[4]- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، الإشراف العام، عبد المنجي بوسنينة، دار الجيل، لبنان، ص246، 247.
[5]- هاشم بن خاطر البركي، المرجع السابق، ص17.
[6]- جورجي زيدان، المصدر السابق، ص 36، 37.

أن يساعد "إيلي سميث" في ترجمة التوراة انهمك في تعلّم اللغات العبرية والآرمية واليونانية القديمة[1].

وفي سنة 1863م أنشأ في بيروت مدرسة عالية سماها" المدرسة الوطنية"حيث أراد تأسيسها على مبدأ الحرية الدينية، فتقاطر إليها الطلاب من سائر أنحاء الشام ومصر والأستانة والعراق...الخ، فكافأه السلطان عن ذلك، وقد تولى ابنه سليم نيابة رئاسة المدرسة وكان يدّرس التاريخ والطبيعيات واللغة الانكليزية، أمّا بطرس فقد كان يلقي الخطب الدينية مرتين في الأسبوع[2].

وفي سنة 1869م فرغ من تأليف قاموسه "محيط المحيط" وهو قاموس عربي أفرغ فيه قاموس الفيروز آبادي [3] إلا أنه رتّبه بترتيب مختلف وأضاف إليه طائفة من الألفاظ العامية وفسّرها بالألفاظ الفصحى والكلمات الأعجمية الأصل ومصطلحات حديثة ورفعه إلى السلطان وأثابه عليه بوسام وجائزة مالية (250 ليرة عثمانية) ثم اختصره في "قطر المحيط" وجعله قاموسا مدرسيا [4]، ووعد في آخر قاموسه بتأليف قاموس للأعلام ثم توسع في مشروعه هذا وبدأ يؤلف قاموسا شاملا لسائر العلوم فشرع عام 1875م[5]، وأصدر ستة أجزاء منه وكان يهيئ المجلد السابع للطبع عندما وافته المنية فأصدر إبنه سليم المجلد السابع سنة1883م والثامن سنة1884م، ولما توفي سليم واصل إخوته بمساعدة ابن عمهم سليمان فأصدروا المجلد التاسع سنة 1887م والعاشر سنة 1898م والحادي عشر سنة 1900م، ثم توقف العمل لبضع سنوات واستأنف بعدها سليمان البستاني مع ابني عمّه نجيب ونسيب فأكملوا المشروع حتى وصل 14 مجلدا[6].

ولبطرس عدّة مؤلفات أخرى مثل: "مصابيح الطالب في بحث المطالب، بلوغ الأرب في نحو العرب، آداب العرب، تعليم النساء، كشف الحجاب في علم الحساب، الشعراء الفرسان"[7]، كما كان نتاجه في مجال الصحافة منقطع النظير آنذاك فمن أشهر جرائده

---

[1]- منير مشابك موسى، المرجع السابق، ص190.
[2]- جورجي زيدان، المصدر السابق، ص37، 38.
[3]- هو محمد بن يعقوب بن محمد إبراهيم الشيرازي الفيروز آبادي أبو الطاهر مجد الدين، ولد سنة 729هـ، وهو صاحب القاموس المحيط في اللغة. ينظر: هاشم البركي، المرجع السابق، ص22.
[4]- هاشم البركي، المرجع السابق، ص22.
[5]- جورجي زيدان، المرجع السابق، ص39.
[6]- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، المرجع السابق، ص428، 429.
[7]- هاشم خاطر البركي، المرجع السابق، ص 23، 24.

صحيفة أسبوعية اسمها" نفير سوريا" وأصدرها بعد الفتنة الطائفية بين الموارنة والدروز ساعيا إلى تخفيف مشاعر الحقد الديني ودعى إلى الإتحاد والتعاون بين مختلف العقائد والقضاء على التعصّب[1].

كما أصدر في عام1870م صحيفة سياسية أدبية نصف شهرية بعنوان "الجنان" وكان شعارها "حب الوطن من الإيمان" وغايته من هذا الشعار هو الدعوة إلى نبذ التعصب من أجل الوطن وشارك في تحريرها عدد من كتاب بلاد الشام والبلدان العربية الأخرى [2]، كما دعى فيها إلى مساواة بين الأديان وفصل الدين عن الدولة ونادى بالالتزام باللغة العربية ودعى إلى تعلم العلوم الحديثة واقتباسها من أوروبا ونشرها، وخلاصة رأيه أن الشرق الذي كان مزدهرا في غابر الزمان قد آل إلى الانحطاط بسبب الحكومات الفاسدة لذلك يجب إصلاح الحكومات ومراعاة العدالة ورص الصفوف من أجل الوطن[3].

وكانت وفاته في أول ماي سنة1883م فجأة بسكتة قلبية[4].

المبحث الثاني: النهضة الأدبية والفكرية

في إطار التحولات الفكرية التي شهدتها بلاد الشام ظهرت الجمعيات الأدبية والعلمية ثم الجمعيات ذات الأهداف السياسية والتي أدت لتجمعات المثقفين، ممّا نتج عنها تطور الأفكار وتوليد مزيد من الأفكار الجديدة، ولعبت الإرسالية الأمريكية في هذا المجال الدور الأبرز، وعملت هذه الجمعيات على تنمية المعارف بما يُلقى من خطابات دورية بين الأعضاء في شتّى مجالات المعرفة الإنسانية إضافة إلى الهدف الأساسي والتبشير، وعن طريق هذه الجمعيات انتشرت القراءة بين الناس، وحدثت فيها العديد من المناظرات الفكرية، وبذلك لعبت الجمعيات دورا كبيرا في النهضة الفكرية التي ظهرت في بلاد الشام

[1]- جورج أنطونيوس، المصدر السابق، ص114.
[2]- منير مشابك موسى، المرجع السابق، ص190، 191.
[3]- ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة (1798-1939م)، دار النهار، لبنان، ص80.
[4]- جورجي زيدان، المصدر السابق، ص39.

خلال القرن 19 م، وقد بدأت من بيروت مركز الإرساليات الأمريكية، ثم انتشرت في عدّة مدن شامية[1] ومن أهم الجمعيات:

1- جمعية الآداب والعلوم: أتت فكرة إنشاء جمعية علمية باقتراح من ناصيف اليازجي وبطرس البستاني خلال السنوات الأولى من ارتباطهما بالإرسالية الأمريكية بحيث تكون الغاية منها رفع مستوى المعرفة بين الشباب، وقد تمّ لهم تحقيق مشروعهم عام 1848م فأنشأت في بيروت باسم "جمعية الآداب والعلوم"[2].

وترأسّها "إيلي سميث" وكانت تُعنى بإلقاء الخُطب والمناظرات والمناقشات العلمية والأدبية وضمت هذه الجمعية مكتبة كانت تشتمل منذ البداية على 516 مخطوطا عربيا و11 مخطوطا تركيا وعلى عدد كبير من الكتب المختلفة، وكان لها قانون أساسي يتكون من 15 مادة توضح تنظيمات الجمعية والهدف منها والرسوم التي يدفعها الأعضاء وكذلك تنظيم عملها[3].

وكان من أعضائها أشخاص أمريكيون آخرون إضافة إلى الكولونيل الإنجليزي "تشرشل" ولم يمضي عامان على تأسيسها حتى بلغ أعضاؤه 50 عضوا أكثرهم من النصارى السوريين المقيمين في بيروت، ولم يكن فيها أي عضو مسلم، واستمرت الجمعية مدة خمس سنوات وأصدرت في الأخير كتابا ألفه بطرس البستاني يتضمن عرضا شاملا لما قامت به من أعمال، وكانت هي الجمعية الأولى من نوعها في بلاد الشام بل في العالم العربي كله آنذاك[4].

2- الجمعية الشرقية: كان اليسوعيون أول من قلد الأمريكيين في هذا الميدان حيث قاموا بتأسيس جمعيتهم الأولى سنة 1850م، وهي الجمعية الشرقية، وقد وضعوا لها برنامجا مشابها لبرنامج الجمعية الأمريكية، كما أشركت في عضويتها عناصر وطنية [5]، وكان المحرّك لها هو الأب "دي برونيير" [6] وتضم الأجانب أيضا خاصة الفرنسيين [1] وكانت تعقد

---

[1]- عبد الرازق عيسى، المرجع السابق، ص246.
[2]- هاشم بن خاطر البركي، المرجع السابق، ص31.
[3]- عبد الرازق عيسى، المرجع السابق، ص 247، 248.
[4]- جورج أنطونيوس، المصدر السابق، ص117.
[5]- جميلة معاشي، المرجع السابق، ص72.
[6]- هنري دي برونيير:يسوعي فرنسي ولد سنة1821م وصل بيروت سنة 1849م، بدأ فور وصوله بتعلم اللغة العربية، وقد أكسبه نشاطه الكبير نفوذا واسعا في بلاد الشام، وتدخل لحماية المسحيين في فتنة 1860م، وقد اضطره المرض إلى العودة لفرنسا ومات فيها سنة1872م.ينظر: ناصر الدين الأسد، من تحقيقه ليقضة العرب لجورج أنطونيوس، ص118.

تعقد اجتماعات دورية تلقى خلالها بعض الأبحاث إلا أن تأثير هذه الجمعية كان محدودا في أوساط المجتمع العربي[٢].

3- جمعية شمس البر: تأسّست في بيروت عام 1869م كفرع لاتحاد الشباب المسحيين الجمعية الدينية بانجلترا، وقد انظم إليها عدد من أدباء بيروت وسوريا المسحيين وأكثرهم من الكلية الأمريكية [٣]، وكانت جمعية أدبية خطابية ومن بين أعضائها "فارس نمر" [٤] و"يعقوب صروف"[٥]، و"يوحنا وتباب" و"جورجي زيدان" [٦]، وانتشرت روح هذه الجمعية بانتشار أعضائها في أنحاء سوريا ومصر، وكان فرعها في دمشق باسم "رباط المحبّة" 1874م، وقد ركزت على الجانب الاجتماعي[٧].

4- المجمع العلمي الشرقي: أنشأ في بيروت عام 1882م[٨] على يد الإرسالية الأمريكية ومن ارتبط بهم من الشوام وكان الهدف منه إحياء العلوم والمعارف المختلفة والتعريف بما تحويه بلاد الشام من آثار، فقد كانت الأهداف أشبه بالقيام بمسح شامل للبيئة والإنسان داخل بلاد الشام، وهو ما تلجأ إليه المراكز الأجنبية داخل البلدان لمعرفة كيف يفكر الناس وتبيّن الوسائل للسيطرة عليهم وتتم هذه الدراسات لخدمة الاستعمار، فالعلاقة وثيقة بين التبشير والاستعمار[٩].

5- جمعية باكورة سوريا: نالت المرأة اهتماما خاصا من الإرسالية الأمريكية وذلك للدور الذي تلعبه في الأسرة والمجتمع، لذا كان الاهتمام بإنشاء جمعيات نسوية، فتم إنشاء جمعية باكورة سوريا في أول 1880م برئاسة السيدة "مريم مكاريوس" فقد اتفقت مع صديقاتها على إنشاء هذه الجمعية في بيروت صاحبها ضجة شديدة فقد كانت أول جمعية نسائية تقام

---

[١]- منير مشابك موسى، المرجع السابق، ص191.
[٢]- الغالي غربي، المرجع السابق، ص220.
[٣]- جميلة معاشي، المرجع السابق، ص72.
[٤]- فارس نمر: ولد عام 1854م في حاصبيا، وفي سنة 1860م هربت أمه بعد مقتل زوجها في المذابح وأخذت أولادها الثلاث وكان أحدهم فارس، وفي صيدا دخل مدرسة أمريكية ومن ثم ذهب إلى بيروت والتحق بالكلية السورية الانجيلية، وترأس فيما بعد جريدة المقطم المعارضة للعثمانيين، توفي سنة 1952م. ينظر: فليب حتي، المرجع السابق، ص567.
[٥]- يعقوب صروف: ولد في بلدة الحدث سنة 1852م، وقد كان في طليعة الذين طوّعوا العربية لتصبح أداة صالحة لنقل العلوم الطبيعية المختلفة، وقد قصر جهوده على خدمة جريدة المقتطف، وتوفي في القاهرة سنة 1827م. ينظر: فليب حتي، المرجع السابق، ص567.
[٦]- جورجي زيدان: ولد في بيروت سنة 1861م، وهو مؤرخ مسيحي وصحفي وقصصي مشارك في بعض العلوم وله العديد من المؤلفات مثل: تاريخ التمدن الإسلامي وتاريخ الآداب العربية. ينظر: هاشم البركي، المرجع السابق، ص17.
[٧]- عبد الرازق عيسى، المرجع السابق، ص253، 254.
[٨]- جميلة معاشي، المرجع السابق، ص 253، 254.
[٩]- عبد الرازق عيسى، المرجع السابق، ص73.

في بيروت ونالت الرخصة من إدارة المعارف في الولاية عام 1889م لنشر الخطب والمناظرات، وكانت عضوات هذه الجمعية من تلميذات المدارس الأمريكية وزوجات الأشخاص المرتبطين بالأمريكيين، وعندما هاجرت بعضهن إلى مصر أنشأن فروعا للجمعية منها "جمعية زهرة مصر" التي أنشأت بين بنات المدارس الأمريكية بالقاهرة، وعملت هذه الجمعية على المناداة بتعليم المرأة وخروجها إلى العمل والدعوة لترقية أحوال المرأة[1].

إضافة إلى العديد من الجمعيات الأدبية مثل: "الجمعية التاريخية" و"جمعية الصناعة" و"جمعية الفنون الطبية" وغيرها من الجمعيات التي أكملت دور المدارس في نشر العلم والثقافة وبذلك أسهمت بدورها في نهضة فكرية في البلاد[2].

أمّا المسلمون فقد تنبّهوا لخطر هذه الجمعيات لأنها مدعمة من طرف الإرساليات التبشرية، فقاموا بتأسيس عدّة جمعيات منها "جمعية المقاصد الخيرية" التي تأسست ببيروت عام 1878م، بإيعاز من مدحت باشا وقد ترأسها عبد القادر القباني ومن خلال أدبيات الجمعية طرحت فكرة كيفية دخول المسلمين في السباق والتنافس التعليمي [3] الذي أطلقته المدارس الأجنبية وكيفية تلافي خطر وتأثيرات التعليم الأجنبي الذي نظر له مؤسسوا الجمعية على أنه مصدر تعبئة سياسية من أجل خدمة مصالح الدول الأوروبية في منطقة الشرق العربي، وقد أوضحت مجلة "ثمرات الفنون" في أحد أعدادها خلفيات النشاط التعليمي المسيحي المدعّم أوربيا قائلة: "إنّ أوربا لم تتجشم هذه المشاق وتصرف تلك المبالغ رحمة بالشرق ولا رأفة بأهل الشام وإنما رغبة في أن تجعل لمشربها السياسي حزبا يتغذى بصحبتها صغيرا فإذا كبر وانتشر في البلاد كان لها عونا على مساعيها"[4].

وكردٍّ على جمعية "باكورة سوريا" أنشأوا جمعية "نهضة الفتاة المسلمة" التي نصت في برنامجها أنها جمعية نسائية وإسلامية مقصدها تعليم الفقيرات واليتيمات من المسلمات وإلقاء المحاضرات عليهن لتثقيفهن[5].

---

[1]- نفسه، ص ص257، 259.
[2]- جميلة معاشي، المرجع السابق، ص260.
[3]- الغالي غربي، المرجع السابق، ص220.
[4]- نفسه، ص221.
[5]- عبد الرازق عيسى، المرجع السابق، ص260.

المبحث الثالث: الإرساليات وظهور الجمعيات السياسية

لقد صار من الواضح إذن أن الحركة القومية العربية بدأت كحركة أدبية في شكل إحياء اللغة العربية وآدابها القديمة والدعوة لبعث ذلك المجد الغابر من التراث العربي الفكري، لكنها ما لبثت أن صارت حركات سياسية تدعوا للتخلص من الحكم العثماني على العرب[1] ومن أهم الجمعيات:

الجمعية العلمية السورية: في عام1857 تقدم عدد من المسلمين باقتراح يتضمن موافقتهم على الاشتراك في تأليف جمعية جديدة تتحد فيها جهود أهل العقائد الدينية جميعها لخدمة العلم على شرط ألا يكون للمبشرين فيها أي أثر[2]،وهكذا أنشئت هذه الجمعية وبلغ أعضاؤها 150 عضوًا، واشترك فيها زعماء العرب من مختلف العقائد وكان من أعضاء مجلس إدارتها العالم الدرزي "محمد أرسلان" الذي بقي عدة سنوات رئيسًا لها، وحسين بيهم وهو عميد أسرة سُنيّة ذات نفوذ، ونصارى من جميع الطوائف من بينها أحد أبناء البستاني وإبراهيم اليازجي وكانت غاياتها ووسائلها وقانونها كلها على غرار جمعية العلوم والآداب

[1]- عمر عبد العزيز عمر: المرجع السابق، ص423.
[2]- عبد الرازق عيسى، المرجع السابق،ص248.

1847م وكان من الطبيعي أن تعوّق فتنة 1860م جهودها، إلا أنه أعيد تأليفها بعد ذلك ونالت اعتراف الحكومة العثمانية سنة 1868م[1]، ولكن الطابع السياسي القومي غلب على نشاطها وهو ما كان مطلوبا من الإرساليات الأمريكية آنذاك، ويعتبر تأسيسها مهدًا للحركة السياسية الجديدة، فقد جاء أول صوت أرسلته حركة العرب القومية في جلسة سرية عقدها بعض أعضائها فحوّلت النقاش من الموضوعات الثقافية إلى حوار سياسي الهدف منه التخلص من الحكم التركي للديار الشامية ومن هنا كان تبني الدعوة القومية وسيلة للقضاء على الدولة الحاكمة[2].

وفي هذه الجمعية ألقى إبراهيم اليازجي قصائد ثورية منها بائيته المشهورة والتي تغثى فيها بأمجاد العرب وبروعة الأدب العربي ونبذ التفرقة وسوء الحكم ودعى العرب إلى الإتحاد للتخلص من الحكم التركي[3] وقد قال في مطلعها:

تنبّهوا واستفيقوا أيها العرب فقد طما الخطب حتى غاصت الركب
الله أكبر، ما هذا المنام فقد شكاكم المهد واشتاقتكم الترب
فشمّروا وانهضوا للأمر وابتدروا من دهركم فرصة ضنت بها الحقب
كم تُظلمون ولستم تشتكون وكم تُستغضبون فلا يبدوا لكم غضب
أقداركم في عيون الترك نازلة وحقّكم بين أيدي الترك مغتصب
فيا لقومي،وما قومي سوى عرب ولن يضيع فيهم ذلك النسب

ويقول أيضًا منذرًا للأتراك:

صبرًا هَيَا أمة الترك التي ظلمت دهرًا فعمَّا قريب ترفع الحُجب
لنطلبنّ بحد السيف مأربنا فلن يخيب لنا في جنبه أرب
ونتركنّ علوج الترك تندب ما قد قدمته أياديها و تنتحب[4]

2- الجمعية السرية (جمعية بيروت السرية): بعد أن كانت الأهداف السياسية مبطنة في جمعيات علمية ظهرت جمعية سياسية سرية عام1875م أنشأتها مجموعة صغيرة من حلقة

[1]- جورج أنطونيوس، المصدر السابق، ص119.
[2]- عبد الرازق عيسى، المرجع السابق، ص249، 250.
[3]- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص423، 424.
[4]- منير مشابك موسى، المرجع السابق، ص193.

البستاني[1] درسوا في الكلية البروتستانتية السورية وهم "فارس نمر" و"يعقوب صروف" و"شاهين مكاريوس" و"إبراهيم اليازجي" و"إبراهيم الحوراني" و"وليم فانديك" ابن المبّشر "كرونوليوس فانديك" وكانوا يجتمعون في بناية "كولدج هول" في حرم الجامعة الأمريكية ببيروت واستطاعت الجمعية أن تستميل المحفل الماسوني الشرقي وكان مركزها في بيروت وأنشأت فروعًا في دمشق وطرابلس وصيدا وكانت اجتماعاتها سرية خوفا من العثمانيين[2]، بدأت عملها السياسي بلصق المنشورات في الشوارع مكتوبة بخط أيديهم وكانت منشوراتها تندد بالحكم التركي وتدعوا العرب إلى الإطاحة به، وشكّ السلطان في أن مدحت باشا على اتصال بهذه الجمعية [3] وفي 3 تموز 1880م أصدرت هذه الجمعية أول منشور لها على رأسه بيت من الشعر لإبراهيم اليازجي هو:

لنطلبنّ بحد السيف مأربنا فلن يخيب لنا في جنبه أرب

وندّد بأهل الشام واستكانتهم واستسلامهم لطغيان الأتراك حسب قولهم، وخلافاتهم التي جعلتهم نهبًا لمطامع الدول الأوروبية، وأظهر قيمة الوحدة الوطنية وضرورتها وأكد على ضرورة دفن الخلافات والإتحاد في وجه الأتراك واستلهامهم أمجادهم العربية[4].

وصدر منشورا آخر نددت فيه الجمعية بالأتراك تنديدًا عنيفًا واتهمتهم بالإخفاق في تطبيق الإصلاحات التي ضلوا يعدون بها خلال 20 عامًا، وأكدت أنه لا أمل يُرجى من صلاحهم وطالبت بحكم ذاتي لبلاد الشام، أصدرت منشورًا آخر في 31 كانون الأول 1880م هاجمت الأتراك واتهمتهم أنهم يحاولون القضاء على اللغة العربية، وأنكرت على السلطان حق الخلافة وأن العثمانيين اغتصبوا الخلافة من العرب، وأنهم خالفوا الشرع في أحيان كثيرة، ووضعوا في هذا المنشور برنامجًا وعدوا بتنفيذه ولو بحد السيف [5] -على حد قولهم-، وأهم نقاط البرنامج:

- منح سوريا الاستقلال متحدة مع جبل لبنان.
- الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية في البلاد.
- رفع الرقابة والقيود على حرية العبير، ونشر التعليم.

---

[1]- ألبرت حوراني، المرجع السابق، ص328.
[2]- عبد الرازق عيسى، المرجع السابق، ص251، 252.
[3]- ألبرت حوراني، المرجع السابق، ص328.
[4]- منير مشابك موسى، المرجع السابق، ص193.
[5]- نفسه، ص194.

- استخدام القوات المجندة من أهل البلاد في المهام العسكرية الداخلية فقط[1].

وكان من الطبيعي أن يحاول السلطان معرفة أعضائها وملاحقتهم، وعندما رأى أعضاؤها عبث جهودهم واستحالة تحقيق مطالبهم في ذلك الوقت هاجروا إلى مصر في حوالي 1883م وتابعوا نشاطهم السري من هناك في الصحف والمجلات التي أصدروها، وقد انحلت الجمعية نهائيًا في حوالي عام 1885م[2].

صحيح أن هذه الجمعية لم تحقق أهدافها، لكنها كانت مظهرًا من مظاهر استيقاظ الوعي السياسي لدى المسيحيين في بلاد الشام الذين استمدوا ثقافتهم وأفكارهم العامة من مدارس الإرساليات [3] ، فقد كانوا يحلمون بتكوين أمة ينتمون إليها انتماءا تامًا وليس كالإمبراطورية العثمانية الإسلامية[4].

وقد أخذ هذا الحُلم لديهم صورًا مختلفة منها لبنان مستقل يكون مركزًا لحياة مسيحية حرة، وتحت حماية دولة أوربية كاثوليكية والواقع أن ذلك كان منذ 1861 أكثر من مجرد حلم، فهذا السنجق (المقاطعة) المنفصل القائم بفضل إتفاق دولي كان ذا حكم ذاتي داخلي وأكثرية مسيحية، لكنه لم يكن في نظرهم سوى خطوة في سبيل الاستقلال الحقيقي الذي لابد أن يتم يومًا بمساعدة أوروبية، بينما تصوره آخرون بشكل مختلف نسبيًا مع نفس المعطيات: جبال لبنان وقراه، وأجراس الكنائس التي تدق بحُرية، والبواخر الأوروبية التي تحميهم وأيدي الأوروبيين التي تساعدهم على الإصلاح والتقدم مع جيرانهم المسلمين لكن الصورة السياسية التي رسموها كانت ضمن إطار سوريا المستقلة لا لبنان أي صورة دولة تشمل جميع أجزاء سوريا الجغرافية من جبال طوروس إلى صحراء سيناء وصورة مجتمع يضم مسيحيين ومسلمين، دروزًا ويهودًا يتعاونون تعاونًا تامًا بحيث تزول أهمية الأكثرية أو الأقلية[5].

ومع كل هذا، فإن التاريخ الحقيقي للقومية العربية يبدأ بكتابات ونشاط شخصيتين من أصل سوري، هما "عبد الرحمان الكواكبي" (1849- 1903م) وهو عربي مسلم ذا نشأة

---

[1]- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص424.
[2]- منير مشابك موسى، المرجع السابق، ص194.
[3]- عبد الرازق عيسى، المرجع السابق، ص253.
[4]- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص424.
[5]- ألبرت حوراني، المرجع السابق، ص328، 329.

تقليدية، والشخصية الثانية "نجيب عازوري"[1] وهو سوري من طائفة الروم الكاثوليك، تربى تربية فرنسية، وكان يجيد اللغة الفرنسية وقد كان موظفا عثمانيا في لواء القدس خلال فترة من الزمن ثم ترك وظيفته وسافر إلى باريس وأخذ يعمل ضد الدولة العثمانية ويسعى إلى استقلال العرب عنها من خلال عدة جمعيات أسسها في باريس[2] أهمها الجمعية الوطنية سنة 1892م وكانت تدعوا إلى إمبراطورية عربية يرأسها سلطان عربي على أن تكون ولاية الحجاز مستقلة يحكمها شخص يجمع بين كونه ملكا للحجاز وخليفة لكل المسلمين تناط به السلطة الدينية للمسلمين جميعًا، كما هو الحال بالنسبة لبابا روما على أن تحتفظ لبنان بنوع من الاستقلال وبحماية الدول الأجنبية [3] ودعى "نجيب عازوري" في كتابه "يقظة الأمة العربية" La réveil de la nation arabe" الذي ألفه بالفرنسية إلى أن حدود الأمة العربية تشمل جميع البلدان الناطقة بالضاد في آسيا دون مصر والمغرب العربي ويدعو إلى استقلالهم عن الأتراك الذين يحمّلهم مسؤولية تخلف العرب عن ركب الحضارة، وأن العرب متفوقون على الأتراك في كل شيء، وكان يائسًا من إصلاح الدولة العثمانية، كما حَذر من خطر الصهيونية على العرب وهو أول مفكر عربي أثار مشكلة الخطر الصهيوني على البلدان العربية بشكل علمي، والصراع المرير الذي سينشب بين الصهاينة والعرب[4].

وشهدت بدايات القرن العشرين ازدهارًا وانتشارًا وتوسعًا كبيرًا للجمعيات المعارضة ليس في بلاد الشام فحسب بل العراق ومصر والأستانة نفسها.

[1]- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص425.
[2]- منير مشابك موسى، المرجع السابق، ص 194، 195.
[3]- مفيدة محمد إبراهيم، المرجع السابق، ص137.
[4]- منير مشابك موسى، المرجع السابق، ص195، 197.

وفي ختام هذا العرض حول الإرساليات التبشيرية وأثرها في بعث الفكر القومي في بلاد الشام خلال القرن19م، نستطيع أن نخرج بعدة نتائج منها:

1. أنّ التبشير في الأصل هو مهمة دينية تتمثل بنشر أي دين أو رسالة سماوية وتبليغها لمن لم يعرفوها، ونقصد به في عرضنا هذا نشر الديانة النصرانية والذي يُعتبر مصطلح التنصير هو المصطلح الأقرب والأصح له، لكن أطلق عليه "التبشير" في الكتابات (الكتب) النصرانية المختلفة، سواءا عربية أو غربية، فأخذ عنهم فصار هو المصطلح المتداول، إضافة إلى إختلاف مآرب المنصّرين وتعدّيها عن نشر النصرانية فحسب، بل صار نشر الدّين جزءا صغيرا من مهامهم فيما بعد فتعدى بذلك مصطلح "التنصير فقط" وصار التبشير مفهوم أوسع من التنصير لكن ذلك لا يُغير من أهدافهم التي حاولوا سترها وراء المفاهيم البراقة.
2. لقد كانت الإرساليات التبشيرية في أول الأمر أهلية يقوم بها نصارى متحمسون لنشر دينهم فحسب، لكن فيما بعد صارت بدعم من الحكومات التي رأت في الإرساليات خير مساعد في تحقيق أهدافها الاستعمارية.
3. ركزت الإرساليات اهتمامها الأكبر على بلاد الشام (سوريا، لبنان، فلسطين، الأردن) وذلك يعود لعدة أسباب منها:

- الموقع الإستراتيجي والدور التاريخي المهم لبلاد الشام بالنسبة للبلاد العربية.
- كثرة الطوائف المذهبية في بلاد الشام سواء من المسلمين سنة وشيعة (دروز علويين، إسماعلية) أو نصارى (كاثوليك، أرثوذكس،...) وهذا ما يسهّل من مهامهم في نشر دينهم في الطرف الأضعف والأنسب من بين هذه الطوائف.
- إحتواء بلاد الشام على "فلسطين" وهي الأرض المقدسة في كل الأديان، وبالنسبة للنصارى فهي مسقط رأس المسيح عليه السلام (بيت لحم).

4. أن الإرساليات التبشيرية لم تكن وليدة القرن 19م بل هي ممتدة في أعماق التاريخ، مع أنها أخذت شكلا منتظما نحو بلاد الشام منذ أوائل القرن17م.
5. أن الإرساليات التبشيرية كانت من أهم وأقوى الوسائل التي استطاعت الدول المسيحية المختلفة من خلالها اختراق جسد الدولة العثمانية والسيطرة على البلاد العربية حيث أننا لاحظنا مدى التعاون بين الحكومات الاستعمارية، وبين رجال الدين المبشرين حيث

دعمتهم بكل أشكال الدعم مقابل خدمة مشاريعهم الرامية إلى السيطرة على تلك البلدان التي دخلوها.

6. لقد استفادت هذه الإرساليات من الظروف التي رافقت ضعف الدولة العثمانية، حيث مكنتها الإمتيازات الممنوحة للدول الراعية لها من العمل دون خوف وحواجز، ومسألة الإصلاحات (كلخانة، الهمايوني) التي منحت الأقليات غير المسلمة حقوقا كثيرة كانوا محرومين منها من قبل، مما قوى شوكتهم، وقرّبهم من الدول الأجنبية التي صارت تشرف عليهم وتتولى أمورهم باسم المذهب.

7. أنّ المبشرين لم يتركوا سبيلا يمكّنهم من تحقيق أهدافهم وإنجاح عملهم إلا سلكوه، فقد رأينا أنّهم اهتموا بالجانب الاجتماعي وذلك من خلال إنشاء المستشفيات ورعاية المرضى حتى في المناطق النائية التي ليس بها مستوصفات، حيث يحاول "الطبيب المبشّر" التقرّب من المريض والتأثير فيه وهو في أشد لحظات الضعف لمحاولة تحويله عن دينه، وجعله رسولا مبشرا بين أهله وذويه، كما أنهم أنشؤوا دور الأيتام والعجزة، وأووا المتشرّدين من النكبات والحروب وزوّدوهم بمختلف المساعدات والخدمات ليظهروا بمظهر "الرحماء" ومحبّي الخير للإنسانية وذلك من أجل التأثير فيهم وتحقيق ما يسعون إليه من خلالهم.

8. كما كان ميدان التعليم من أخصب الميادين التي كان للمبشرين فيها دورا كبيرا جدا، ففي حين كانت بلاد الشام متأخرة ثقافيا ظهروا هم كروّاد للثقافة والعلم من خلال تأسيس المدارس الإبتدائية في المناطق الجبلية فتسابق الأهالي لإدخال أطفالهم لهذه المدارس وما لبثوا أن أنشؤوا المدارس والمعاهد والكليات المختلفة مثل: كلية عينطورة، مدرسة عبية 1846م، الكلية السورية الإنجيلية 1866م، كلية القدّيس يوسف ببيروت 1875م والتي كان لها دور مهم جدا في تحريك عجلة العلم والثقافة التي كانت شبه معطلة في بلاد الشام قبل ذلك.

9. إنّ إدخال المطابع لبلاد الشام من طرف الإرساليات وانتشارها فيما بعد انتشارا واسعا كان له الأثر الكبير في تنشيط الميدان الثقافي وإغناء بلاد الشام بالكتب وملء المكتبات وهذا ما كانت تفتقر إليه من قبل.

10. كما كانت الصحافة من أبرز الوسائل والمجلات التي نشطت بفعل الإرساليات فبعد ما كانت الصحف في بلاد الشام شبه نادرة إلا ما أتاها من استانبول تقريبا، فقد كثرت الصحف وتطورت مواضيعها وظهرت الكثير من المجلات مثل: مجلة حديقة الأخبار 1858م، ومجلة الشمس، الحقائق...الخ، والكثير من الصحف مثل: جريدة البشير 1870م، ثمرات الفنون1875م، الجنان...الخ.
11. كان التنافس في بلاد الشام محتدما بين مختلف الإرساليات من أجل الريادة والنجاح في العمل، فقد تنافسوا في إنشاء المستشفيات والمدارس والمطابع...وغيرها، فكان لهذا التنافس إيجابيات لبلاد الشام التي شهدت بسبب ذلك الازدهار في مختلف الميادين خلال القرن 19م.
12. لقد اعتمدت الإرساليات في إنجاح عملها على النصارى العرب الموافقين لها في المذهب، والذين كان لهم دور كبير في إكمال عمل المبشرين، فقد كانوا هم المترجمين للكتب المقدّسة للعربية، وهم مؤلفي الكتب المدرسية، وهم المدرّسون في المدراس الأجنبية مثل: بطرس البستاني وناصيف اليازجي...الخ.
13. مثلت الجمعيات تجمعات المثقفين التي ينتج عنها تطوير الأفكار الجديدة كما عملت على تنمية المعارف المختلفة، وقد لعبت الإرسالية الأمريكية الدور الأبرز في هذا المجال، وما لبثت هذه الجمعيات الأدبية أن صارت جمعيات سياسية تتخللها دعوات إلى القومية العربية والثورة ضد الأتراك، وظهر ذلك من خلال القصائد الحماسية التي كان يلقيها إبراهيم اليازجي في الجمعية السريّة.
14. لقد كانت الإرسالية الأمريكية لبلاد الشام في القرن 19م أنجح الإرساليات لأنها استطاعت أن توجد ببلاد الشام طائفة بروتستانتية من العدم، وكانت هي أنشطها في تأسيس الجمعيات وريادة الفكر القومي العربي الذي حقق في النهاية أسمى هدف للدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية وكل أعداء الدولة العثمانية آنذاك، وهو إخراج العثمانيين نهائيا من بلاد الشام بعد 1916م وتقسيمها فيما بعد.

ملحق رقم (01): خريطة لبنان في عهد القائمقاميتين

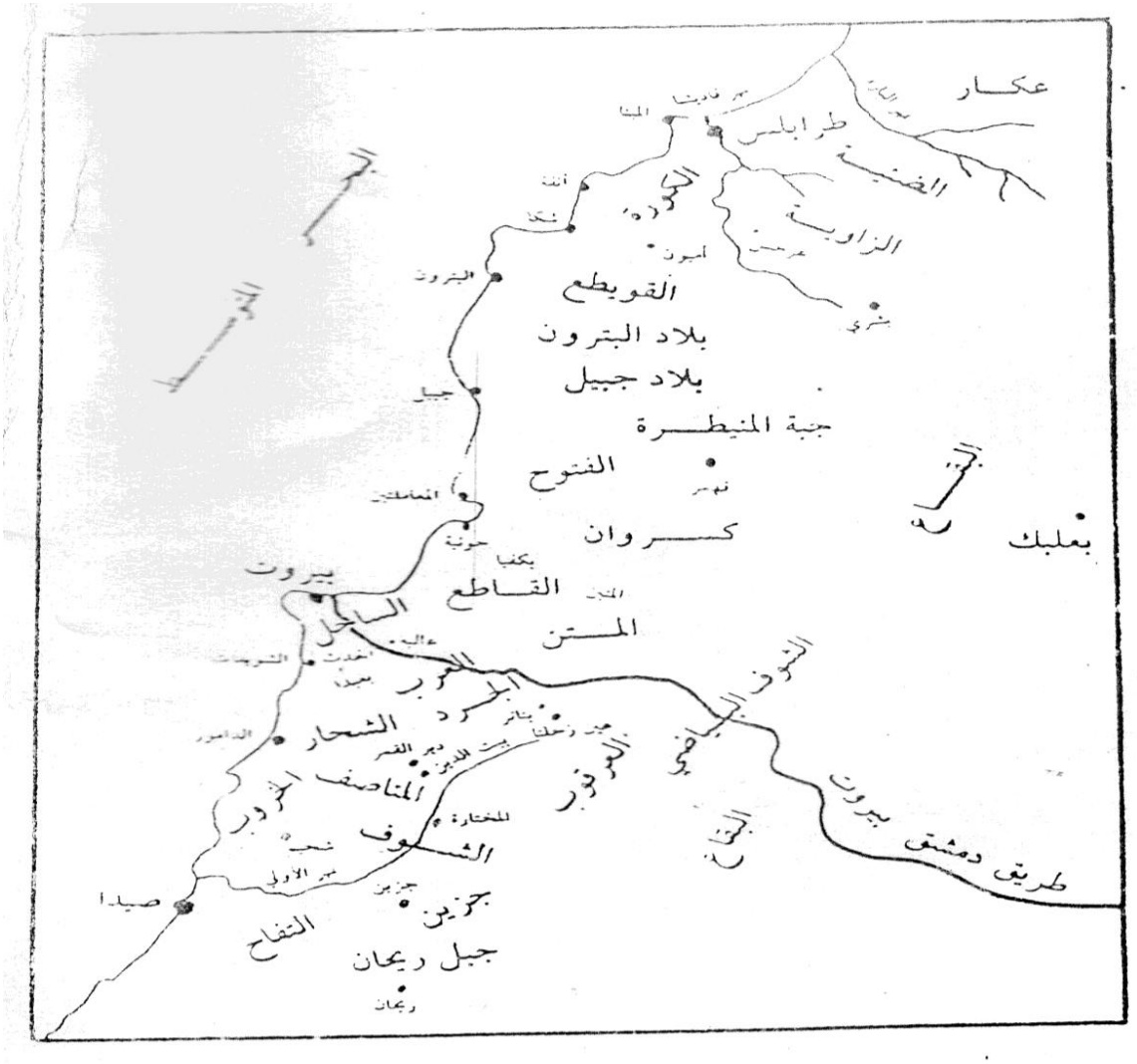

المرجع: عمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي، المرجع السابق، ص363.

ملحق رقم (02): جدول يوضح توزيع المدارس في المدن السورية سنة 1883م.

المدينة	بنون	بنات	معلمون	معلمات	تلاميذ	تلميذات	سكان
بيروت	65	36	316	201	6881	5571	120،000
دمشق	135	38	200	45	5000	2000	150،000
القدس	67	14	171	57	2872	1086	20،000
حلب	35	7	76	18	3755	810	100،000
طرابلس	11	4	38	17	687	365	17000
حماه	35	1	27	1	1155	20	30،000
حمص	58	3	63	4	2110	190	20،000
اللاذقية	12	2	27	6	663	160	12،000
عكا	21	2	30	7	500	150	10،000
صيدا	10	5	21	41	247	240	9،000
صور	5	5	8	7	240	280	3،000
نابلس	20	3	36	4	1081	142	8،000
بعلبك	3	2	5	7	300	133	5% 000
حاصبيا	3	1	5	3	308	140	6،000
المجموع	480	123	1023	418	23300	11387	210،000

المرجع: جميلة معاشي، المرجع السابق، ص66.

ملحق رقم (03): جدول يوضح المدارس الإسلامية في ولاية سورية سنة 1886م.

المكان	مدارس راشدية				مدارس عالية			
	عسكرية		ملكية		اعدادية		علطانية	
	عدد	طلاب	عدد	طلاب	عدد	طلاب	عدد	طلاب
لواء الشام	1	301	5	165	1	83	1	90
ولا يةبيروت	1	120	3	195	0	0	1	90
لواء طرابلس	0	0	1	80	0	0	0	0
لواء حماه	0	0	2	70	0	0	0	0
لواء اللاذقية	0	0	2	75				
لواء عكا	0	0	2	اتأسست مجددا				
لواء البلقاء	0	0	1	80				
لواء حوران	0	0	1	28				
المجموع	2	421	17	693	1	83	2	180

المدارس الابتدائية

المكان	قديمة				جديدة			
	ذكور		اناث		ذكور		اناث	
	عدد	تلاميذ	عدد	تلاميذ	عدد	تلاميذ	عدد	تلاميذ
لواء الشام	117	3861	21	505	15	807	4	307
لواء بيروت	23	1038	00	00	10	954	5	710
لواء حماه	38	1715	000	00	6	386	0	00
لواء اللاذقية	0	0	0	0	14	718	1	؟
لواء عكا	63	1661 (++)	0	0	4 (++)	124 (++)	1	35
لواء نابلس	10	165	0	0	3	875 (+++)	1	85
لواء حوران	9	166	0	0	18	296	1	30

المرجع: جميلة معاشي، المرجع السابق، ص67.

ملحق رقم (04): جدول يوضح المدارس غير الإسلامية في ولاية سورية سنة 1886م.

المكـــان	مـدا رس عـاد يـــــة				مـدارس عـــالية			
	ذكـــور		انـــاث		ذكـــور		انـــاث	
	عـدد	طلاب	عـدد	طلاب	عـدد	طلاب	عـدد	طلاب
لواء الشام	56	2047	10	562	24	1665	6	863
لواء بيروت	52	2977	7	652	47	1450	23	3800
لـواء حمـاه	11	340	2	130	3	130	2	100
لواء البلقـاء	7	193	4	127	0	0	0	0
لواء اللاذقية	13	90	0	0	4	90	0	150
لـواء عكـــا	30	875	2	131	1	180	3	242
لـواء طرابلس	14	680	3	210	0	0	1	300

(+1)

المرجع: جميلة معاشي، المرجع السابق، ص68.

ملحق رقم (05): صور لبعض الشخصيات البارزة المذكورة في المذكرة.

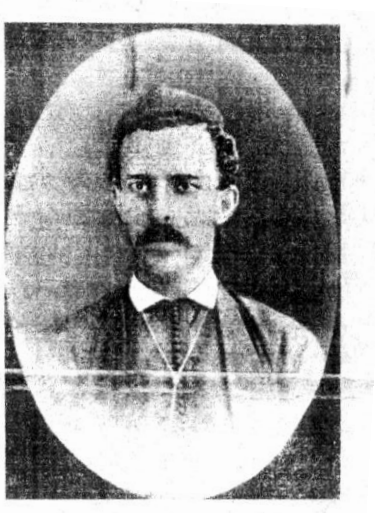

إبراهيم اليازجي

عبد القادر قباني

خليل خوري

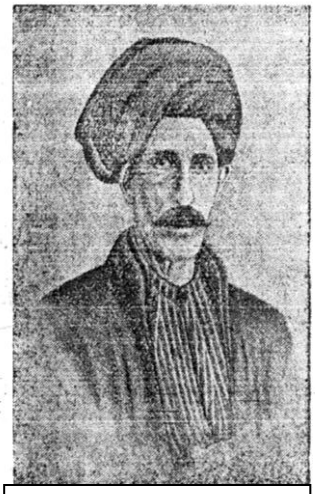

ناصيف اليازجي

المرجع: جورجي زيدان، المصدر السابق، ص ص 16، 88، 99، 169.

ملحق رقم (06): صورة تبيّن عنـوان جريدة "كوكب الصبح المنير".

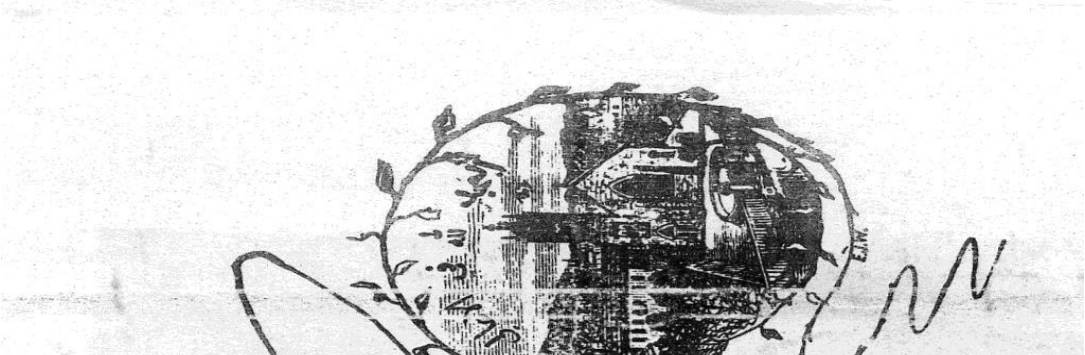

المرجع: فيليب دي طرازي، المرجع السابق، ص19.

ملحق رقم (07): صورتان تبيّنان عنـوان جريدتي "التقدم" و "البشير"

شعار جريدة التقدّم في بداية نشرها

شعار جريدة البشير في بداية عهدها

المرجع: فيليب دي طرازي، المرجع السابق، ص ص 12، 23.

ملحق رقم (08): صورة تبيّن المطبعة الأمريكية المؤسسة في بيروت سنة 1834م.

المرجع: فيليب دي طرازي، المرجع السابق، ص5.

فهـــرس المحتويات

العنـــــوان	الصفحة
شكر وعرفان	
مقـــدمـــة	أ- د
الفصل الأول الأوضاع العامة لبلاد الشام خلال القرن 19م	05- 29
الأوضاع السياسية والإدارية	06
الأوضاع الإجتماعية والإقتصادية	16
الأوضاع الثقافية	24
الفصل الثاني الإرساليات التبشيرية ودورها في بلاد الشام خلال القرن 19م	30-52
مفهوم التبشير وبواعثه وأهدافه	31
أهم الإرساليات التبشيرية الناشطة خلال القرن 19م	39
الدور الثقافي والاجتماعي للإرساليات التبشيرية	48
الفصل الثالث الإرساليات التبشيرية والقومية العربية	53-69
الإرساليات وبروز النخب المثقفة	54
النهضة الأدبية والفكرية	60
الإرساليات وظهور الجمعيات السياسية	64

خـاتمة 73-70

الملاحق 82-74

قائمة المصادر والمراجع 88-83

فهرس المحتويات 91-90